456

Sultan Süleyman & huyam

السُّلْطَانُ الْعَاشِقُ

سليمان وهويام

A.M.

منصور عبد الحكيم



Sun.
27/12/2015

سليمان وهويام


منصور عبد الحكيم

السلطان العاشق

إنها قصة حب إسطورية ، تعد من أشهر قصص العشق التي شهدها القرن السادس عشر، وتاريخ الدولة العثمانية.

انها قصة سليمان وهويام ، أو السلطان سليمان القانونى والسلطانه هويام ، فبطل القصة هو السلطان العثمانى سليمان القانونى اعظم سلاطين الدولة العثمانية و عاشر سلاطينها .

واما معشوقتة وبطلة القصة ، فهى الجارية الروسية خُرّم سلطان (١٥٠٦-١٥ أبريل ١٥٥٨) والتى صارت الزوجة الثانية للسلطان العاشق ، ووالدة ابنه وخليفته سليم الثاني ، وتعرف باسم(روكسلانا) وايضا (هويام)فى المسلسل التركى عن قصة القرن العظيم .

توج سليمان حبه وعشقه بهويام بأن تزوجها ، ويعد هذا خرقا للتقاليد العثمانية الملكية ، حيث كانت المعشوقة جارية السلطان .

وتقرأ فى هذا الكتاب عن هذا الحب الأسطورى وأحداث هامه ، مثل أول لقاء للسلطان بتلك الجارية ، وحبه لها وافتتانه وهيامه بها.

وتقرأ عن الحريم السلطاني في الدولة العثما نية،ونظام الحريم السلطاني في القصور العثمانية .

واللقاء الأول بين السلطانة (ناهد) دوران والجارية روكسلانه،ولقاء روكسلانه والسلطان والحب من أول نظرة،ورسائل الحب بين روكسلانه والسلطان سليمان ، وتقرأ عن مكائد روكسلانه وضرتها ماه دوران.

ومؤامرة روكسلانه مع الوزير إبراهيم باشا التى انتهت بقتله،ومكائد روكسلانه مع الأمير مصطفى ولى العهد وابن ضرتها والتى انتهت ايضا بقتله.

ثم تقرأ عن هلاك روكسلانه بنيران مؤامراتها ،بعد تصاعد نيران المؤامرات التى دبرتها روكسلانه .

انه كتاب يحكى قصة أشهر قصص الحب الأسطورى سوف تهديه لغيرك وتحتفظ به فى مكتبتك الخاصة .

I.S.B.N. 978-977-376-801-0
3 656521 273231
نيل وفرات.كوم
www.nwf.com
مكتبة نون
noonbooks
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة
www.darketab.com
darelkitab@yahoo.com

أشهرُ قَصَصِ الحُبِّ الأُسْطُورِيِّ

السُّلْطَانُ الْعَاشِقُ
سُلَيْمَانُ وهُويَامُ

منصور عبد الحكيم



تطلب منشوراتنا من دور النشر والمكتبات التالية

أسماء المكتبات	البلد
دار الكتاب العربي ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت/ القاهرة - مكتبات دار الشروق - مكتبات ديوان شركة الشرق للمكتبات - مكتبات مؤسسة الأهرام - مكتبات أخبار اليوم - مكتبة منشأة المعارف الإسكندرية	مصر
طرابلس المكتبة العلمية - المكتبة العربية - دار الوليد - دار الجيل - دار المعرفة - مكتبة ١٧ فبراير بنغازي -مكتبة الشعب مصراته - دار الفكر الجديد	ليبيا
إداريات ومعارف سوسة -- شركة كتبكم تونس - المركز التونسي للكتاب - دار المعرفة - مكتبة تونس - دار الجيل	تونس
مكتبة العزة والكرامة وهران - مكتبات العزة والكرامة بالعاصمة الجزائر وكافة فروعها	الجزائر
الدار العالمية - دار الإنماء الثقافي - دار الثقافة - دار الأمان - مكتبة الألفية الثالثة - وراقة المبادرة - دار إحياء العلوم الزاهرة - الناشر الأطلسي - وراقة الجنوب - مكتبة فرنسا - مكتبة باريس	المغرب
مكتبات جرير - مكتبات العبيكان - مكتبات تهامة - مكتبة الرشد - دار الوراق - مكتبة الشوأف - المتنبي الدمام - كنوز المعرفة جدة - روائع المعرفة جدة - المكتبة التراثية (الرياض)	السعودية
مكتبة الجامعة أبو ظبي - مكتبة زين المعاني دبي - مكتبات دبي - المكتبة التجارية - العين - مكتبات جرير	الإمارات
مكتبات ذات السلاسل - دار الفكر الحديث - مكتبة العجيري - مكتبة الرسالة - الشركة المتحدة لتوزيع الصحف - مكتبات جرير	الكويت
مسقط: مكتبات جرير - أحمد ناصيف 0096892339307	عُمان
المكتبة الوطنية المنامة - مكتبات جرير	البحرين
دار المدى للعلوم والثقافة (أربيل) - دار التفسير (أربيل) - مكتبة برايتي (أربيل) - المكتبة القانونية - مكتبة النهضة (بغداد) - مكتبة السنجري (الموصل) - مكتبة الفارابي (كركوك) - دار الزمان (كركوك)	العراق
المكتبة الأهلية - مكتبة دنديس - دار أسامة - الفرسان - كشك الثقافة العربية حسن أبو علي - جلون	الأردن
مكتبة دنديس الخليل - مكتبة القدس (القدس الشريف) - دار العماد للنشر الخليل - دار الجندي (القدس)	فلسطين
مكتبات القاضي - عمار القاضي الخرطوم - أم درمان	السودان
شركة الشرق الأوسط - النيل والفرات كوم	لبنان

مكتبات جرير السعودية وكافة فروعها بالدول العربية

الإهداء

إلى كل الشادين إلى المعلومة الصحيحة والمعرفة المفيدة ودراسة التاريخ لفترة كانت إرهاصاً لما سوف تتغير فيه وجه خريطة العالم العربي والإسلامي أهدي هذا العمل.

منصور

المقدمة

إن الحمد لله وحده نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وله الثناء كله لا نحصي ثناءً عليه، سبحانه وتعالى عما يصفونه المشركون علوًّا كبيراً.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن ولاه إلى يوم القيامة.

ثم أما بعد...

فقد كتبت عن الدولة العثمانية وعن سلاطينها وخلفائها أكثر من كتاب وكان الجانب البطولي والعسكري وما قدمه هؤلاء السلاطين للإسلام من فتوحات هو الغالب.

ولكنني في هذا الإصدار أردت الحديث عن الجانب العاطفي في حياة هؤلاء السلاطين، وقد بحثت في قصص عشق هؤلاء السلاطين فوجدت أشهر تلك القصص قصة عشق السلطان العاشر للدولة العثمانية السلطان سليمان القانوني (سليمان الأول) وزوجته روكسلانا، وكيف أدى هذا الحب الأسطوري إلى كوارث ومآسٍ أثرت على حياة تلك الدولة العظمى، وشرعت في العمل على إبراز أهم الأحداث في قصة هذا

السلطان العظيم وقد ألفت عن سيرته وحياته كتاباً سابقاً، ولكني هذه المرة أتعرض لقصة عشقه وحبه الأسطوري بجاريته (روكسلانه) التي أعتقها وتزوجها وأنجب منها ولي عهده وسلطان الدولة العثمانية الحادي عشر السلطان سليم الثاني.

فهذه قصة عن روكسلانه وسليمان القانوني أو الحب الأسطوري والعشق السلطاني أشهر قصص العشق في البلاط السلطاني العثماني.

نسأل الله أن يوفقنا إلى إخراج هذا العمل بالوجه الذي يرضيه عنا، وأن يتقبله منا وأن يكون في ميزان حسناتنا يوم القيامة إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

منصور عبد الحكيم محمد عبدالجليل
القاهرة في ١ / ٢٠١٣
mansor2455@yahoo.com

١

أشهر قَصص الحب الملكي

- أشهر قَصص الحب الملكي في العصر الحديث.
- مذكرات الأميرة جويدان عن كواليس القصر العثماني.

أشهر قصص الحب الملكي في العصر الحديث

الحب لا يفرق بين غني وفقير ولا أمير وحقير وليس له مكان ولا زمان، وقصص الحب سجلتها الكتب وخلدت أسماء أبطالها عبر التاريخ، وما يهمنا هنا هو الحب داخل القصور الملكية وأبطالها الأمراء والملوك.

ومن أشهر قصص الحب الأسطوري الملكي ما شهدته العائلة الملكية البريطانية في القرن الماضي حطمت كل قيود البروتوكولات الملكية العتيقة، وأشهرها قصة الحب الأسطوري الذي جمعت بين ولي العهد البريطاني الأمير «تشارلز» و«كاميلا باركر» التي استمرت ٣٥ عاماً لتنتهي بزواج مدني دون حضور الملكة إليزابيث عام ٢٠٠٥م.

وشهدت أيضاً العائلة المالكة البريطانية قصة حب جمعت بين الابن الأكبر لولي العهد تشارلز أحدث قصة ملكية في القرن الحالي.

حيث أحب الأمير وليام زميلته في الجامعة «كيت ميدلتون» لأكثر من تسع سنوات وكان بداية الحب عام ٢٠٠١م في جامعة «سانت لاتروز» باسكتلندا التي تخرج فيها عام ٢٠٠٥م، وانتهت قصة الحب الملكي بزواجهما في ٢٠١٠ في قصر بكنجهام في حفل أسطوري حيث بلغ تكلفة حفل الزواج حوالي ٨٠ مليون جنيه إسترليني!!

ومن القصر الملكي البريطاني إلى القصر الملكي في الدنمارك وبطل القصة هو الأمير فريدريك الابن الأكبر لملكة الدنمارك مارجريت الذي أحب الاسترالية ماري ذات

الأصول الأسكتلندية حيث قابلها أول مرة عام ٢٠٠٠م خلال حضوره دورة الألعاب الأولمبية في سيدني بأستراليا وبعد حب دام ثلاث سنوات تم إعلان الخطبة الملكية بينهما في أبريل ٢٠٠٣م وبعد عام تم الزفاف بعد أن تنازلت العروس عن جنسيتها الأسترالية.

وفي القصر الملكي بالسويد شهد القصر قصة حب أسطورية بطلتها الأميرة السويدية فيكتوريا وأما الطرف الآخر فكان من عامة الشعب «دانيال ويستلينج» وهو مدربها الخاص للياقة البدنية وأما الزمان فكان عام ٢٠٠٢، وبعد موافقة الملكة الأم سيلفيا على هذا الحب ومباركتها له تم إعلان الخطوبة عام ٢٠٠٩م وتم عقد الزفاف الملكي بعد عام تقريباً في ١٦ يونيو ٢٠١٠م وحظي دانيال بلقب الأمير.

وشهد القصر الإسباني الملكي قصة حب بطلها الأمير الإسباني فيليب وبطلتها الصحفية «ليتيسيا» في ٢٠٠٠م وتم الزواج الملكي عام ٢٠٠٤ رغم اعتراضات رجال الدين لأن «ليتيسيا» كانت مطلّقة ولكن الكنيسة وافقت على الزواج لأن زواج «ليتيسيا» الأول كان زواجاً مدنيًّا.

مذكرات الأميرة جويدان
عن كواليس القصر العثماني

جلس الخديوي عباس حلمي على عرش مصر وهو في الثامنة عشرة من عمره عام ١٨٩٢م بعد وفاة والده الخديوي توفيق باشا وكانت مصر تحت الاحتلال البريطاني وحاكمها الفعلي اللورد كرومر المعتمد البريطاني.

وفي عام ١٩٠٥م تعرف الخديوي عباس حلمي الثاني على الكونتيسه «ماي دي تورروك» وأحبها حتى إنه أتى بها إلى مصر وخصص لإقامتها سرايا خاصةً.

اعتنقت الكونتيسه ذات الأصول المجرية الإسلام وأصبح اسمها «جويدان عبدالله» وتزوجها الخديوي عباس الثاني رغم اعتراض الأسرة الملكية العلوية والسلطان العثماني أيضاً؛ ولكن حب الخديوي للأميرة قد تعدى الحدود والبروتوكولات وتم الزواج بينهما وإن كان قد انتهى بالطلاق عام ١٩١٣م.

المهم أن الأميرة جويدان زوجة الخديوي قد دونت مذكراتها الشخصية وذكرت تفاصيل كواليس القصر العلوي والقصر العثماني والأحوال السياسية في مصر في زمانها، وقد تناولت في مذكراتها بعض المسكوت عنه مما يحدث داخل القصور الملكية، فتحدثت عن الحريم في القصور العثمانية والقصور المصرية، وهي المرة الأولى التي تتحدث فيها واحدة من الحريم عن الحريم، كما أنها تتحدث كأوروبية لها ثقافتها التي لا تبالي بالقيود وقد ذكرت أن الملك أو الأمير لا يعلم شيئا مما يحدث داخل الحريم، فهو إذا دخل

البيت يتلقاه الجميع بالخضوع الواجب وابتسامة لا تفارق الثغور، والويل لمن تتقدم إليه بشكوى فإن هذا يعكر مزاج البيك، وما وجد الحريم إلا ليدخل السرور على نفسه.

وتوضح جويدان أن الإسلام حرم قتل الأطفال وإجهاض النساء، وهي عادة كان يفضلها العرب ونهاهم عنها الإسلام، لكن الأمر بتحريم قتل الأطفال وإجهاض النساء لم يجد صداه عند حريم القصور، كذلك أمعن كثير من السلاطين في الضلال، فسنوا قانون قتل الأخ محافظة على الملك.

وكان السلطان بايزيد الأول هو أول من وضع قتل مبدأ الأخ، وجرى السلاطين من بعده على هذه السُّنَّة بحكم العادة، ولما جاء السلطان محمد الثاني جعل قتل الأخ قانونا من قوانين الملك وركنا من أركان حفلة التتويج. وظل قانون قتل الأخ قائما حوالي ٤٠٠ سنة، إلى أن جاء السلطان عبد المجيد فألغى هذا القانون وصار الإخوة لا يُقتلون ولكن يعيشون.

وتتابع سلاطين آل عثمان حتى جاء إبراهيم الأول الذي كان عبدا لشهوته، فكان مقامه في الحريم على الوسائد الناعمة وحوله النساء والغلمان والزهور والروائح العطرية وكل ما من شأنه إثارة الشهوة، وكان يتأنق في ثيابه ويسرف في التحلي بالجواهر حتى إنه كان يعلق الجواهر في لحيته، وزين مركبته وسروج خيله بالذهب الخالص، وكان يطوف أحيانا مع وزرائه في المدينة ثم لا يلبث أن يقطع الطواف ويسرع في العودة إلى الحريم، وحدث مرة أنه أثناء طوافه رأى امرأة كبيرة الجسم فأعجبه هذا النوع من النساء، فأمر أن يؤتى له بأسمن امرأة في المدينة، وخرجت الجنود للبحث وجاءوا بنساء كثيرات لم يوافقهن خياله، حتى عثروا أخيرا على أرمينية حازت رضاء السلطان فقربها إليه، وأخذ نفوذها يكبر بنسبة جسمها حتى تضاءل أمام نفوذها نفوذ السلطان والمحظيات الأخريات فتآمرت المحظيات ضدها، وبلغها خبر المؤامرة فأقامت وليمة دعت إليها غريماتها، ثم أمرت بخنقهن على المائدة، وانفردت هي بالسلطة، فكانت تغري السلطان بقتل من تشاء، والسلطان لا يرد لها كلمة لأنه كان عبدا لشهوته.

وتقول جويدان عن حال الجواري في القصر العثماني: «لو كنت باشا لتركت جميع الجواري في قصري عذارى حتى تنتهي حياتهن التعيسة، ولا أفهم مطلقا كيف أن رجلا يملك قليلا من حسن الاختيار ورقة الذوق يستطيع الاعتداء على هذه المخلوقات الذليلة المسكينة.

لا أستطيع ان أفهم كيف تنازل سلاطين آل عثمان جميعهم عن الحرص على صفاء دمائهم، واختاروا غير الراشدات أمهات لأولياء عهودهم وفلذات أكبادهم، فليست هناك سلالة اختلطت بالدماء الغربية مثل العثمانيين، إذ أمهات سلاطينهم جميعا من الشركسيات أو الكرديات أو الروميات أو البلغاريات دون التركيات. وفي مصر يكثر انتخاب الزوجات من الجواري، فإن المطالب التي تطلبها الجارية ورغباتها في الغالب تافهة قليلا إذ أنها بطبيعتها جُبلت على الرضا.

وبينما يمتاز حريم السلاطين في الآستانة بما ورثته عن بيزنطة من مظاهر الأُبَّهة والعظمة، فإن الحريم المصري الذي ينتمي إلى أصل تركي لا يظهر عليه شيء من مجد الفراعنة».

وكانت الأميرة جويدان تحب الآستانة حيث تكون هي والخديوي بعيدا عن رسميات القصور في مصر، فكانت تشعر أنها حقا متزوجة، وفي هذا كتبت تقول:

هنا كان يتملكني اليقين بأنك زوجي وأني زوجتك. وأعتقد أننا في هذا الجو كنا نتبدل أناسا آخرين، حتى في شعورنا الواحد قِبل الآخر. وأعتقد أن حياتي كانت تتقلب بين أطوار ثلاثة مختلفة. واحد منها في القاهرة مقر الحكم، والثاني أثناء الرحلات، والثالث في الآستانة.

أما في القاهرة فلم أكن أر فيك إلا الخديوي فقط، حتى أثناء زيارتك لي في سراي مسطرد، كنت لا أستطيع أن أنظر إليك نظرتي إلى شيء خاص بي، ويكفي أن أرى العربة التي تنتظرك في الحديقة لأعلم أن زيارتك عرضية محدودة.

وأما في الرحلات مهما طالت مدتها فإننا كنا نلتقي قليلا ولمدة قصيرة، إذ كنا دائما

نعيش في مكانين منعزلين وإن كانا متقاربين.

أما في القسطنطينية فحياتنا تختلف عن كل ما سبق، فقد قامت سراي شويكلي تحت أعيننا وعنايتنا واشترينا بأيدينا كل ما يلزم لها؛ فالسراي كلها كانت من أجلنا لا من أجلك وحدك ولا من أجلي وحدي، إذن فبيتنا الحقيقي لا يوجد إلا في الآستانة».

كان للخديوي إسماعيل أربع زوجات، وعلى عكس المألوف كانت هؤلاء الزوجات صديقات لا شحناء بيْنهن ولا بغضاء، وقد ألف بينهن حبهن لرجل واحد.

وكان إسماعيل إذا أحب لم يترك لمحب بعده مجالا، وإذا أهدى أغدق حتى أغرق، وإذا أراد البناء فإنه يهدم حيًّا بأكمله ليشيد عليه ما يريد، وعلى هذا المنوال قامت سراي الجزيرة التي بناها خصيصا للإمبراطورة أوجيني لتكون مقاما لها أثناء زيارتها لمصر، ولو استطاع لأحال مصر كلها إلى روضة غناء تخطر فيها هذه الملكة الجميلة.

ولما أبدت الإمبراطورة رغبتها في الطواف بالقاهرة على ظهر حمار، رافقها الخديوي في هذا الطواف.

وتحكي الأميرة جويدان عن الخديوي إسماعيل وحبه لإمبراطورة فرنسا أوجيني، والتي لكي يدعوها لزيارته في مصر صنع حضارة هامة تتلاءم مع أهمية شخصيتها، وكانت المناسبة التي ستحضر فيها هي افتتاح قناة السويس، وإقامة أول خط سكك حديدية مصرية من الإسماعيلية إلى القاهرة وإنشاء دار للأوبرا تتفرج فيها الإمبراطورة، وكلف ملحنا إيطاليا مشهورا بتلحين أوبرا جديدة خصيصا لهذا الافتتاح هي أوبرا عايدة.

وهكذا نجح إسماعيل باشا في علاقته بالإمبراطورة أوجيني التي ظلت محافظة على العهد حتى بعد أن زال عنها وعنه العرش، وبعد رحيله كانت تزور مصر سنويا في ملابس سوداء، وتبدأ مقامها بزيارة أرامل إسماعيل لتجتر الذكريات.

وكانت جويدان مغرقة في حب عباس وكتبت فيه صفحات بالغة الرقة تعبر فيها عن حبها الشديد، وهي لا تنكر أنه قيد حريتها وأنه كان يغار عليها من قراءة الكتب ومجالسة النساء، ولكنها مع ذلك كانت لا تطيق البعد عنه، إلا أن هذا الحب الأسطوري الملكي

ينتهي كما ذكرنا بالطلاق، وتشعر الأميرة بصدمة حقيقية عند طلاقها من الخديوي، فكانت تجلس في قصرها بمسطرد وعانت كثيرا من بقائها بمفردها، فكتبت تقول:

«إنني في منزلي أطوف في حجراته، فمن ذا الذي يقول: إن الأشياء جامدة لا حياة فيها؟ إن الأشياء تحتفظ بتاريخ الحياة وتجيد إعادة القصص، فكم من حلم جميل أستعيد قراءته من بين هذه الوسائد الحريرية. كنا جالسين أمام المدفأة، وكنت أنظر إلى نارها المشتعلة، ولم يكن ضروريا أن أنظر إلى وجهك لأنك كنت بأكملك ماثلا في نفسي، ثم بدأت الحديث، ولكن صوتك كان غريبا على أذني كأنه صوت لا أعرفه، صوت لا أعرفه، صوت بعيد عن ذاكرتنا، وكان هذا الصوت يقص شيئا عاديا. رجلا خان زوجته، ثم وجد نفسه مدفوعا إلى الاعتراف لزوجته بهذه الخيانة، فهل يعلم هذا الرجل أن مسرحه هُدم؟ لم يحدث شيء، وظلت النار مشتعلة في الموقد وإذ بيدك تقبض على يدي، وفي هذه اللحظة عدت أنت كما أعرفه، فابتسمت ابتسامة لا علاقة لها بأفكاري، ففي نظرك انتهى الموضوع بانتهاء القصص وأما في نظري فقد ابتدأ كل شيء الآن».

تلك مقتطفات من مذكرات وذكريات تلك الأميرة المجرية الأصل والتي كانت زوجة خديوي مصر مطلع القرن العشرين.



الخديوي عباس حلمي باللحية



الخديوي عباس حلمي
حاكم مصر



الأميرة جويدان زوجة الخديوي عباس حلمي وقصة حب ملكي.

2

الحريم السلطاني في الدولة العثمانية

- نظام الحريم السلطاني في القصور العثمانية.
- القصر الذي عاش فيه السلطان سليمان القانوني وحريمه وأسرته.
- نماذج من النفوذ النسائي في الحكم والسياسة على مر التاريخ.

نظام الحريم السلطاني
في القصر العثماني الحاكم

القصر السلطاني في أي نظام ملكي هو مقر الحاكم سواء كان ملكاً أو سلطاناً أو إمبراطوراً، وقد أخذ السلاطين العثمانيون بنظام الحريم في قصورهم فكانت أسرة السلطان العثماني مخصصاً لها مكان خاص في القصر للسكنى والعيش من وراء أسوار القصر العالية بعيداً عن العالم الخارجي وتلك المساحة التي تسمى حرم أو الحريم السلطاني أي المنطقة المحرمة على غير العاملين والساكنين بها دخولها وإلا استحق الموت وبالتالي فكلمة الحريم من الحرمة.

وكل المعلومات التي أخذت عن حريم السلطان كما ذكر المختصون كان من خلال العاملين في الحرم السلطاني والنساء اللائي عشن فيه ثم تحررت وتزوجن كما ذكر ذلك المؤرخ «دوسو» الذي أقام في أستانبول ثلاثين عاماً (١٧٨٨ - ١٨١٨م). (١)

وكانت المنطقة التي يسكن بها الحريم السلطاني تحاط بأسوار عالية عليها حراسة مشدَّدة يطلق عليه الحرملك وكان له قوانينه وأسراره وكان الطريق المؤدي له عبارة عن ممر طويل له أربعة أبواب مصنعة من الحديد والبرونز، ويضم الحرملك والدة السلطان (السلطانة الأم) وأخواته، زوجاته وأولاده الصغار وعدداً من الجواري الحسناوات.

و كان للسلطان غرفة خاصة وسط الحرملك فهو كان يزور أجنحة الحريم بمساعدة

---

١ - انظر الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبدالعزيز محمد الشناوي.

«الكايا» وهي من أكبر موظفي الحرملك ومن بين وظائها تنظيم أوقات زيارات السلطان لحريمه. ولكي يتم إعلان وصول السلطان إلى منطقة الحريم كان يلبس حذاء من فضة لإثارة ضجة وانتباه الحريم.

ومن الممنوع أن تنظر جارية إلى وجه السلطان أو في عينيه فهي أقل منه مكانة ومن واجبها الانحناء للنظر إلى الأرض.

وكان مصدر الجواري الشراء من الأسواق المخصصة لبيعهن وكذلك الأهواء للسلطان وكذلك السبايا اللاتي يقعن في أيدي الجنود والجيش في الحروب.

وكان رئيس الخصيان السود يتناوبون على حراسة أبواب الحريم السلطاني ليلاً ونهاراً فقد كانت منطقة الحريم منطقة مغلقة ومحرمة لا يسمح لأحد بدخولها، والاقتراب منها أو النظر إلى ساكناتها إلا للخصيان وهم عبيد بيض وسود استؤصلت من أجسادهم أعضاء الذكورة فلا شهوة لديهم.

وكانت توجد في منطقة أجنحة الحريم مساحات واسعة من الحدائق الخضراء وكان للسلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم بها غرفة خاصة وحمام وقاعة استقبال.

من وجهة نظر السلاطين العثمانيين كانت الجواري تستعمل لإنجاب أكبر عدد من البنين لتقوية الدولة والسلالة العثمانية وكان السلاطين يفضلون الجواري على الزوجات الشرعيات لأن الزوجة في الأصل وخاصة بالنسبة للسلاطين الأوائل غالباً ما تكون من السلالة نفسها أو من عائلة مرموقة مما يثير خوف السلاطين على أن يكون ولاء هذه النساء لعائلاتهن وليس لأزواجهن.

ما أن تدخل جارية إلى الحريم إلا وتعتنق الإسلام تتلقى برنامجاً تربويًا دقيقاً.

وتحتل والدة السلطان أعلى مرتبة في الحرملك وفي الدولة كلها فهي بمثابة السيدة الأولى وتسمى بـ (السلطانة الأم) وتعنى بخدمتها العشرات من الجواري الجميلات والكثير من الخصيان الذين يحرسون غرفتها التي هي أجمل جناح في الحرملك.

لدى السلطانة الأم «ملحقة خصوصية» تكون بمثابة مساعدة أو سكريتيرة للسلطانة

ولديها مركز مرموق في الحرملك. السلطانة الأم تعتبر المسؤولة عن إدارة الحرملك والجاريات، وغرفة السلطانة الأم في قصر توبكابي هي أكثر الأجنحة زخرفة.

وهناك القادن [١] أو القادن أفندي وهن الجواري المفضلات التي أنجبت الواحدة منهن ولداً للسلطان أي أم ولد. وهن في المرتبة الثانية في الحرملك بعد والدة السلطان وتتمتع القادن بجناح خاص وعدد كبير من الجاريات والخصيان.

وكان السلاطين العثمانيون السبعة الأوائل قد تزوجوا النساء الحرائر زواجاً شرعيًّا ثم جاء السلاطين من بعدهم فاتجهوا إلى جواري القصر لإنجاب الأولاد.

و كانت النساء القادن تعيش مع بعضهن ولكن بجو تنافسي حاد أما القادن التي أنجبت الولد البكر للسلطان فتسمى ب «باشقدان»، وقد حرص السلاطين العثمانيون على اختيار أربعة من الجواري اللاتي أنجبن ذكوراً ليكن زوجات بعد أن يتم إعتاقهن وتغير وضعهن الاجتماعي ومركزهن القانوني من جارية إلى سيدة يطلق عليها قادين تنال معاملة مثل السلطانة.

وتحرص كل قادن على لبس مجوهراتها، للتمتع بها أولا، وثانيا لإظهار مكانتها لدى السلطان، لأن هذه الجواهر تكون عادة مهداة منه لها.

وحسب العرف في الحرملك، فإن مكانة القادن ليست أبدية وكذلك المجوهرات المهداة إليها، فعندما يأتي سلطان جديد يأتي بـ (قوادن) جديدة معه، يتم سحب الهدايا من الـ (قوادن) القديمة لمنحها للجديدات.

وتخاطب كل قادن الأخرى بلقب (كردش) أي: أختاه، ولكن هذه المخاطبة لا تعكس بأي حال من الأحوال مشاعر كل قادن تجاه (أختها) القادن الأخرى، ففي الحرملك تعيش الحريم في صراع بقاءٍ لا ينتهي.

ولا يقتصر الحرملك بالطبع على والدة سلطان وبناتها، وعلى القوادن وأولادهن، ولكنه يضم جواري لهنَّ مراتب ومهام أخرى، ومنهن: الكلفة، وجمعها كلفوات، وهي

---

١ – قادين كلمة تعني السيدة ذات المنصب والمركز الاجتماعي المرموق.

جارية لها مقام أعلى من باقي الخدم، وللكلفوات دور محوري في الحرملك.

وما أن تصبح الجارية (كلفة) حتى تطمح للارتقاء درجة أخرى ولكن مؤثرة لتصبح (جوزده). والـ جوزده guzdeh، لقب معناه (في العين) ولكنه اصطلاحا يستخدم في وصف من نجحت في لفت نظر سيدها، وهي مرتبة التي تستحوذ عليها تجعلها في مقام أعلى من الكلفة في الحرملك. وإذا أصبحت الواحدة (جوزده)، فإن طموحها أن ترتقي درجة أخرى لتصبح (إقبال)، وهو لقب يطلق على المفضلة مؤقتا لدى السلطان، وهي مكانة مهمة في الحرملك، وأرقى من الجوزده.

وعندما تصبح الجارية (إقبال) فأمنيتها تكون أن تحمل من السلطان، وتأتي له بولد، لتصير (قادن)، ويمكن أن يلعب القدر لعبته وتصبح أما للسلطان. بعد أن يموت السلطان الحالي ويعتلي ابنها العرش، ومعه تصبح (والدة سلطان) تملك مفاتيح القوة والتأثير.

والمراتب كثيرة في الحرملك ومنها (الخازندارة) أي أمينة الخزينة، وكذلك هناك أمينة المجوهرات وهي مرتبة ترفع صاحبتها على باقي الخدم.

ويتجاوز دور الخصيان كثيرا مجال الخدمة، ولهم دور مؤثر في الحياة السياسية، وكبيرهم يدعى الكيزلار اغاسه، أي رئيس المخصيين، والذي كان الأوربيون يطلقون عليه السامي الأسود، وهو ذو نفوذ ورتبته في التسلسل القيادي تأتي بعد الوزير مباشرة.

والجواري وهن طبقات تلي القادنات في المرتبة أربع طبقات من الجواري، أعلاها الطبقة المسامة باسم الـ (غديكليس) التي تنتخب القادنات من بين أفرادها، كما أن بعض جواري هذه الطبقة يصبحن وصيفات شرف للسلطان ويتولين خدمته أو يتسلمن وظيفة خازن دار الحريم.

ويلي هذه الطبقة طبقة ثانية، مهمةُ أفرادِها خدمة والدة السلطان والقادنات وأولادهن.

أما الطبقة الثالثة من الجواري فهي طبقة الجواري المتمرنات اللواتي ألحقن بالحريم

مجدداً، ويجري تدريبهن على القراءة والكتابة والخياطة والتطريز والموسيقى والغناء والرقص حتى يستطعن الالتحاق بالطبقات الأعلى حين تدعو الحاجة ويتوفر الشاغر.

أما الطبقة الرابعة فهي طبقة جواري الخدمة ولا تستطيع الواحدة منهن أن ترتفع من طبقتها هذه، بعكس زميلاتها في الطبقات الأعلى.

وكانت نساء الحريم من الجواري الأجنبيات، وكن في غالبيتهن من الأوروبيات اللواتي أسرن في الحروب التي خاضتها الجيوش العثمانية ضد الدول الأوروبية.

وقد اشتهر من هؤلاء الجواري الأوربيات الأصل: "خُرم" سلطانه سرية السلطان سليمان القانوني التي عرفها الأوربيون باسم روكسلانا، والتي كانت من أصل أوكراني. ثم والدة السلطان محمد الثالث التي كانت من سبايا البندقية، ووالدة مراد الرابع وإبراهيم التي كانت سبيّة يونانية.

ومنذ نهاية القرن السادس عشر اتجهت تجارة الجواري إلى القوقاز (القفقاس) وأخذت أعداد كبيرة من الجواري القوقازيات يتدفقنَ على العاصمة العثمانية ومنها إلى القصر السلطاني.

وقد أعجب السلاطين بالقوقازيات كثيرا وذلك لجمالهن وذكائهن وبراعتهن في فنون الخدمة، وكن يُلحقن بالحريم وهن صغيرات لا يزيد عمر الواحدة منهن عن العاشرة أو الحادية عشرة، فيدرَّبن ويربَّيْن حتى يصبحهن أهلا لخدمة السلطان أو صحبته.

وكثيراً ما كان رجال الدولة يهدون السلطان جواري أكبر سنا، وذلك بعد تدريبهن وتثقيفهن وصقل مواهبهن، فيتقبل السلطان الهدية وينعم على صاحبها إذا صادفت من نفسه قبولاً.

وكثيراً ما كان السلاطين يُنعمون على جواريهم بالعتق، فتصبح الواحدة منهن حرة تستطيع الزواج من أي شخص تريد وتترك الحريم.

وإذا توفي السلطان كان من حق قادناته اللواتي لم ينجبن أولاداً أن يتمتعن بحريتهن وأن يتزوجن من يرغبن من الرجال.

وكان كبار رجال الدولة يحبذون الزواج من قادنات السلطان المتوفي لما لهن من نفوذ في الدولة ولما لاتصالاتهن ومداخلاتهن من أهمية في تثبيت مراكز الزوج أو رفع شأنه.

وتتناسب أهمية القادن ونفوذها مع ضعف شخصية السلطان واستعداده للتأثر بآراء من حوله من نساء وخدم.

وقد وصل نفوذ نساء الحريم أوجَّه زمن السلطان إبراهيم، فقد استطاعت إحدى جواريه، لشدة ما لها من تأثير عليه، أن تنال حكم مقاطعة من المقاطعات، وأن تنيب عنها في إدارتها شخصاً غيرها، لأنه لم يكن مسموحاً لنساء الحريم، مهما كانت طبقتهن أن يغادرن القصر إلا إذا صحبهن السلطان في رحلة من رحلاته الصيفية خارج العاصمة، حتى إنه لم يكن ليسمح لهن في أغلب الأحيان بتعدِّي جدران دار الحريم إلى جزء آخر من أجزاء القصر، ولا بد لهن من استئذان السلطان نفسه إذا أردن الخروج إلى حدائق القصر.

وإذا سَمحَ لهن بالخروج، فإن حراسة شديدة تقام حول الحدائق ويُمنع اقتراب أي شخص منها حتى لا تمتد الأنظار الفضولية إليهن.

الخصيان في دار الحريم:

الخصيان هم الذين يحرسون دار الحريم ويقومون بإدارة الكثير من شؤونها. ومنذ مطلع القرن الخامس عشر، وحتى نهاية القرن السادس عشر، كان أغلب خصيان الدار من البيض، ومن أصول قوقازية كجواري الدار أنفسهن. وأثناء حكم مراد الثالث استلم ثلاثة من الخصيان السود مناصب هامة في الحريم. ومنذ ذلك الحين أخذت أعداد كبيرة منهم تدخل الدار وأصبح لهم الرئاسة على البيض.

وفي سنة ١٧١٦ حاول الوزير الأول الداماد جور لولو علي باشا أن يلغي استعمال الخصيان في القصر السلطاني فأوعز بمنع خَصْي العبيد السود وبيعهم إلى وسطاء القصر. ولما توفي علي باشا هذا عادت تجارة الخصيان السود إلى الازدهار وتدفقت أعداد كبيرة

منهم على قصور السلطان وازداد نفوذهم لحد كبير وتدخلوا في شؤون الدولة وسلَّمهم السلاطين مقاليدَ الأمور.

وقد زاد نفوذ الخصيان في القصر السلطاني حتى أصبح رئيسهم الذي كان يعرف باسم (دار السعادة آغاسي) أو (قزلار آغاسي) أكبر موظفي القصر، واحتل المركز الثالث في الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم.

وكان الصدر الأعظم وشيخ الإسلام لا يستطيعان مقابلة السلطان إلا بعد المرور برئيس الخصيان.

أما الخصيان البيض فقد اقتصرت مهامهم على أعمال الخدمة، وأوكل إلى السود أمر حماية الحريم والإشراف على شؤونهن كما أوكل إلى رئيسهم (القزلار آغاسي) الإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين، وكانت هذه الوظيفة من قبل من اختصاص رئيس الخصيان السود.

وقد بلغ عدد الخصيان السود المستخدمين في حريم السلطان في القرن الثامن عشر ٢٠٠ خصي، يضاف إليهم عدد آخر كان يقوم بالخدمة في قصور السلطان الأخرى وفي أجنحة الأميرات العازبات وقصور الأميرات المتزوجات.

وكان هؤلاء الخصيان يُنتقون من بين العبيد الذين تحضرهم القوافل القادمة إلى مصر من دارفور وسِنار وغيرهما.

وكان الأطفال منهم يُخصون قبل وصولهم إلى مصر عند موقع قرب أسوان. وبعد أن يلتحقوا بالقصر تبدأ عملية تثقيفهم وتدريبهم على الخدمة وآداب السلوك من قِبَل متقدميهم من بني جنسهم، ويتولون أثناء تدريبهم حراسة أبواب دار الحريم، وينامون في أماكن مخصصة لهم قرب الدار، وبعد أن ينهوا تدريبهم ودراستهم يمرون بمراتب مختلفة في السلَّم الخدمي، تبدأ بعضوية الحرس وتنتهي بمنصب رئيس هذا الحرس. ويتولون أثناء ذلك خدمة القادنات، ويرتقون منها إلى وظائف أعلى قد تصل إلى مرتبة (القزلار آغاسي) التي تعادل رتبة الوزير في الدولة.

وكان هناك طبقة الوصفاء وهم شباب صغار لا تزيد أعمارهم عن الخامسة والعشرين

وكان الإشراف عليهم من اختصاص الخصيان البيض، فحين توكل إلى بعضهم مهمة الخدمة في جناح من أجنحة القصر أو عند بعض سكانه، كان أحد الخصيان البيض يشرف عليهم ويكون مسؤولا عنهم.

ويدعى رئيس الخصيان البيض باب السعادة آغاسي أو قبي آغاسي أي رئيس البوابة، وقبل أن ينازعه مكانته رئيس الخصيان السود كانت له رئاسة أمور دار الحريم والإشراف على شؤونها.

ويتبع الـ (قبي آغاسي) فريقٌ من الخصيان البيض يبلغ عددهم أربعين خصيًّا، كما يتبع الخصي المسؤول عن الخدمة في الأجنحة أربعون آخرون يوزعهم في مهام الخدمة المختلفة.

وينام الخصيان في أماكن بنيت خصيصاً لهم "جماعية»، ويرأس كل عشرة وصفاء خصي أبيض، أما رؤساء الخصيان فيفرد لكل منهم جناح خاص.

كان السلطان محمد الفاتح هو أول من وضع أصول وقواعد الخدمة الداخلية، ولما جاء السلطان سليم الأول وفتح سوريا ومصر، تعرف على آداب السلوك في قصور سلاطين المماليك فيها، فأدخل بعض التعديلات على تنظيمات الخدمة الداخلية في بلاطه، وألبسها ثوبا من الأبهة والتفخيم، وخاصة بعد أن حصل على البردة النبوية الشريفة، واتخذ لنفسه لقب خليفة المسلمين.

وكان السلطان بايزيد الثاني، والد السلطان سليم قد أسس مدرسة لتدريب الوصفاء وتعليمهم هي مدرسة غلطة سراي يدخلها كبار الخصيان ويتخرجون فيها بعد مدة قد تطول أو تقصر حسب قابليتهم واستعداهم للتعلم.

وبعد تخرجهم في هذه المدرسة ينتقلون إلى القصر السلطاني فيتابعون دراستهم وتدريبهم على أيدي خوجات من الخصيان البيض والوصفاء المدربين الذين لا تقل أعمارهم عن الثلاثين والذين لهم خبرة ومعرفة كافية بآداب السلوك وأصول الخدمة. وبعد انتهاء تدريبهم ودراستهم ينقلون للعمل في الأقسام الثانوية من القصر فإذا ما أظهروا براعة ومقدرة استطاعوا الوصول إلى منصب خادم السلطان الخاص.



أحد أبواب القصر الذي عاش به السلطان سليمان القانوني وحريمه (طوب قابي).



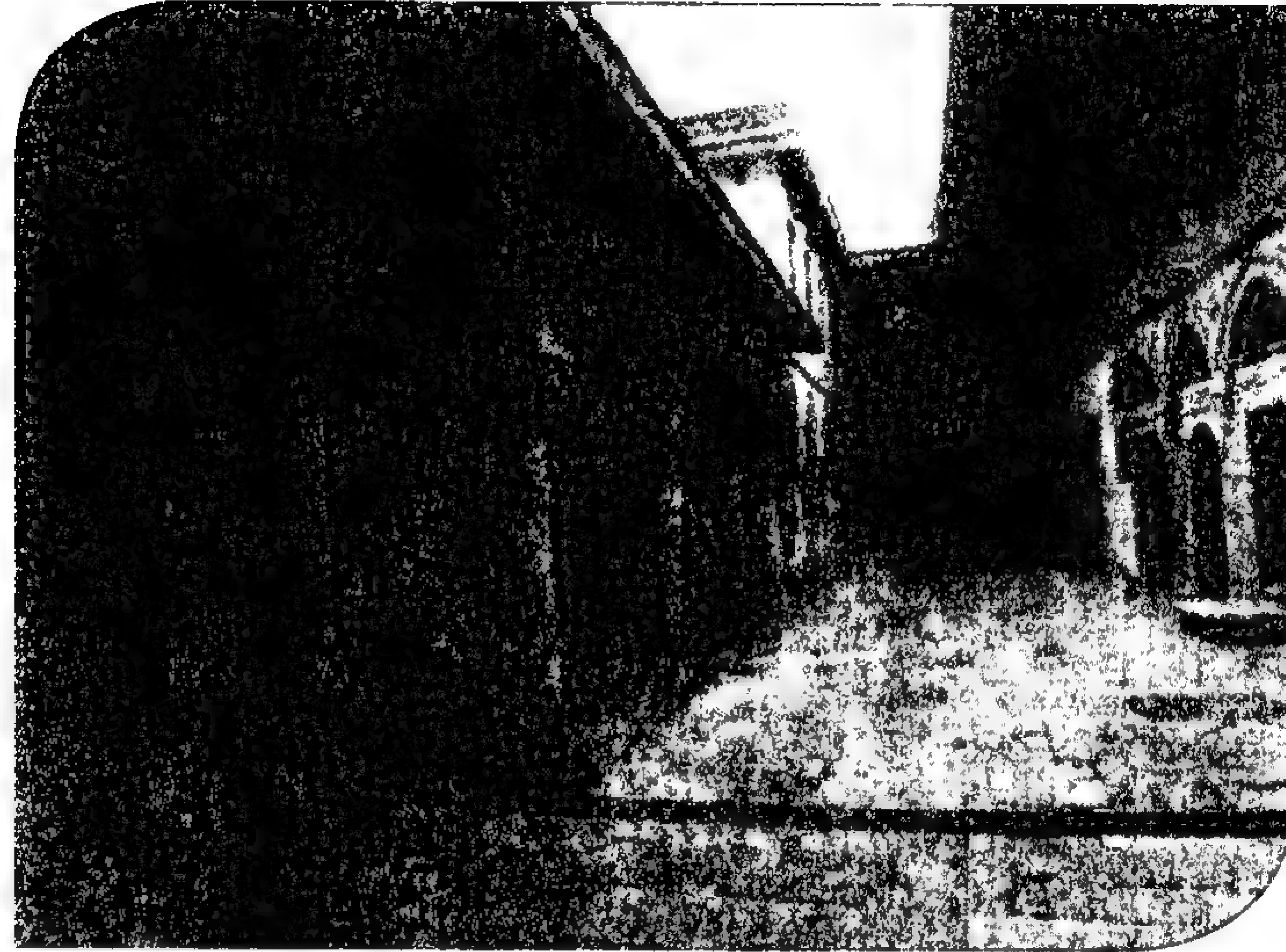
الجواري والسلطان في الحرملك السلطاني.



غرفة السلطانة الأم في قصر توبكابي.



ممر بين غرف الحرمالك



بعض غرف الجواري المميزات في توبكابي.

القصر الذي عاش فيه السلطان سليمان القانوني وحريمه وأسرته

القصر الذي عاش فيه سليمان القانوني وحريمه يعرف بالباب العالي (طوب كابي أو توبكابي سراي بالتركية) يقع في إسطنبول في تركيا كان مركز الحكم في الدولة العثمانية من عام ١٤٦٥م إلى ١٨٥٣م، وكان السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية قد أمر ببنائه على مساحة ٧٠٠ ألف متر مربع حتى يكون مطلًّا على أنقاض الحضارة الرومانية القديمة وكان يسمى سراي عامرة، ثم طوب قابي، واستخدم القصر الذي يقع في إستانبول كمركز إدارى للدولة العثمانية على مدار ٤٠٠ عام من تاريخها الممتد لأكثر من ٦٠٠ عام، فهو القصر الذي يعيش فيها السلاطين العثمانيون، وكان يقيم فيه عبر العصور ما يقرب من ٤,٠٠٠ شخص.

وظل مركزاً إداريًا للدولة العثمانية حتى بناء السلطان عبد المجيد قصر "دولمه باغجة»، والذي أصبح إقامة رسمية للسلاطين العثمانيين.

ومساحة القصر التى كانت ٧٠٠,٠٠٠ متر مربع عند البناء أصبحت ٨٠,٠٠٠م.

وقد تم إخلاء قصر طوب قاپى سراى مع بداية الحياة في قصر "دولمه باغجة»، قصر "يلديز سراى» وغيرها من القصور. إلا أن طوب قاپى سراى ظل محتفظ بأهميته على مدار العصور حتى بعدما ترك السلاطين العثمانيون الإقامة فيه، فالزيارة التى كان السلطان وعائلته يقومون بها في شهر رمضان من كل عام للقصر، دفعت مصلحة

الأمانات المقدسة للاهتمام به وعمل صيانة سنوية له.

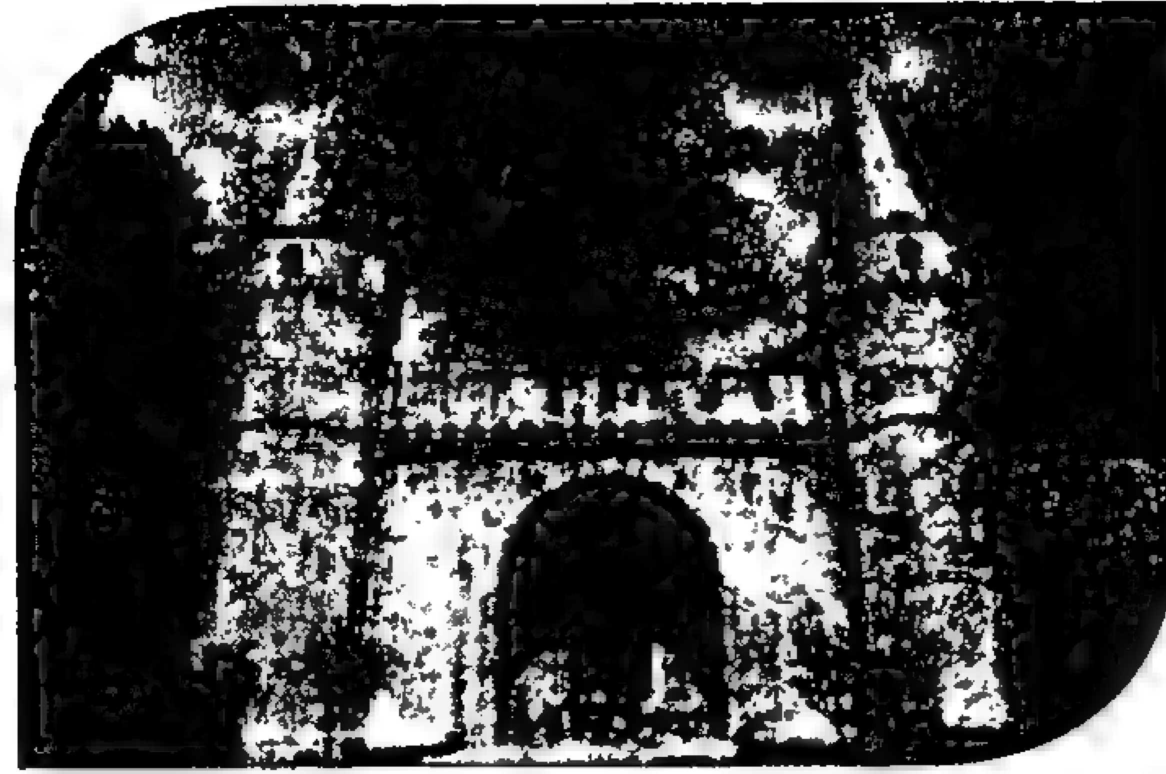
وقد شرع السلطان محمد الفاتح في بنائه عام ١٤٦٥م[1]، وتم افتتاح قصر طوب قاپـى سراى للمرة الأول كمتحف في عصر عبد المجيد، حيث عرضت المقتنيات الموجودة في خزينة القصر على السفير البريطاني، وصار من المعتاد عرض مقتنيات القصر والأشياء الموجودة في الخزينة على الأجانب، وفي عهد السلطان عبد العزيز تم عمل أرفف عرض زجاجية «فاترينات» وتم توظيفها لعرض مقتنيات القصر فيها على الأجانب.

وقد فكر السلطان عبد الحميد أن يفتح قصر طوپ قاپـى سراى للزيارات العامة ويغلقها أيام الأحد والثلاثاء إلا أن عزله من على العرش حال دون ذلك.

وقد افتتح القصر للزيارة العامة في ٣ أبريل ١٩٢٤م، بأمر من الماسوني مصطفى كمال أتاتورك وكان يتبع لمديرية متاحف القصر العتيق وقد شرع في تقديم الخدمات باسم كتخدا الخزينة في البداية ثم مديرية الخزينة فيما بعد.

بعد فتح السلطان محمد الثاني أو محمد الفاتح القسطنطينية (إسطنبول) عام ١٤٥٣م، أقام السلطان ما بين عامي ١٤٧٥ - ١٤٧٨ القصر الجديد في إستانبول، ثم أضاف إليه السلطان أحمد الثالث ١٧٠٩ م جناحاً أطلق عليه اسم: طوب كابي، وبعد احتراق القصر وتجديده أُطلق عليه اسم قصر طوب كابي، واستمر ليكون قصراً للسلطان وحاشيته وأهله وزوجاته، وكذلك مكاناً رسميًّا لاستقبال الضيوف والزوار، وقد تم إنشاء هذا القصر عام ١٨٧٤م بأبعاد (٢١٠× ٣٠مترا)، وتم بناؤه من الحجر البني اللون، وهو عبارة عن مجموعة من المباني التي تربطها أفنية وممرات حركة ومناطق خضراء، وللقصر مدخل رئيسي يتكون من دعامتين عاليتين تشبهان المنارة تدعى (باب المدفع) بارتفاع ١٥,٢ مترًا وبعرض ١٥,٥ مترًا، بين القرن الذهبي وبحر مرمرة.

١- أي بعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية.





أحد مداخل وأبواب قصر طوب قابي.



قصر طوب قابي من الداخل



منظر لقصر الباب العالي من البسفور (طوب قابي أو توبكابي سراي بالتركية) في إسطنبول.



أحد أبواب القصر.



لقطة داخلية للقصر.



منظر لقصر طوب قابي من الداخل.



إحدى مقصورات قصر طوب قابي.



قصر طوب قابي وممراته وحجراته.

وصف القصر:

وقصر طوب قابي يتصل ببحر مرمرة، حيث أنشئ على البحر في شبه جزيرة إسطنبول أمام الأكربول البيزنطي، وأقام محمد الفاتح سورا يسمى «السور السلطاني» يفرق بين المدينة والأسوار البيزنطية، ويوجد في القصر العديد من الأبواب المطلة على البحر والبر وكذلك يجاور «آيا صوفيا».

وفي المدخل تجد القصر يعكس التاريخ الذي مرت به الدولة على مر السنين، ويعتقد أن هناك الكثير من الخزائن التي لم تكتشف بعد في هذا القصر، وأوسع جانب في القصر هو جانب مرمرة الذي يمتد طويلا من الحديقة الخاصة (بهجة).

ومنذ بداية القرن الـ١٨ حدث تجديد في الأبنية، كما كان يستقبل السفراء ورجال الدولة. والمكان الذي كانت خيولهم تربط فيه ويسمى رواقا، وفي اليمين توجد مستشفى غولهانة، وكذلك الفرن الخاص، ومركز توزيع الماء في القصر. ويوجد الكثير من النوافذ التي يطل من خلالها السلاطين للرؤية. ولقد جدد القصر في القرن الـ١٩.

وفي بداية القرن الـ١٦ صنعوا رواقا من الرخام وفي القرن الـ١٨ وما بعده شيد قصر من الخشب لغرض استخدامه في الصيف وصنع بأسلوب يسمى «الروكوكو».

والقصر له سبعة مداخل، والوحيد المفتوح منها هو الذي يقع أمام كنيسة «آيا صوفيا» التي تحولت إلى مسجد بعد فتح القسطنطينية ولم يكن مسموحا بفتح بقية الأبواب إلا في مناسبات محددة وبأمر مباشر من السلطان العثماني نفسه.

وقد وزعت مباني طوب قابي سراي حول أربعة أفنية كبيرة يقع الواحد منها وراء الآخر من جهة البر إلى شاطئ البحر وأخذ الموقع شكله الحالي بعد إضافة عدد من المنشآت كالمطابخ وأجنحة الحريم والأسبلة والنافورات والحدائق على مدى القرون التي كان فيها مقرًّا رسميا لخلفاء بني عثمان.

وحسب الروايات التاريخية، فقد كانت كتيبة من البوابين «قابوجية» تقوم بحراسة البوابة الرئيسية في نوبات تتبدل أثناء ساعات النهار وفق نسق معين وكتيبة أخرى

للحراسة الليلية، ويترأس الجميع رئيس للبوابين (قابوجي باشي).

وفي السراي بنايتان عظيمتان إحداهما للخزينة الهمايونية، حيث كانت تحفظ أموال الدولة، والأخرى لملابس السلطان، ولكل مبنى باب حديدي مغلق ويوضع ختم السلطان على باب الخزينة وكان الزوار الذين يدخلون القصر من البوابة الرئيسية يظلون على صهوات جيادهم حتى البوابة التالية ويمرون عندئذ على فناء فسيح على الجانب الأيسر منه مظلة كبيرة للوقاية من المطر وعلى الجانب الأيمن مستشفى لعلاج من هم داخل السراي.

وعند نهاية هذا الفناء يكون على الزوار الترجل والتخلي عن جيادهم لدخول البوابة الثانية التي تفتح على فناء به شتى أنواع الزهور والأشجار وتتوزع داخله نافورات المياه وسط مروج خضراء ترعى فيها الغزلان، وعلى جانبي الفناء الأنيق رواقان كان جنود التشريفة بملابسهم المزركشة يقفون بها لتحية القاصدين زيارة السلطان.

وعلى الجانب الأيسر للفناء الإسطبل السلطاني، وكانت به خيول يتراوح عددها بين ٣٠ و٣٥ من أحسن الجياد لركوب السلطان وبالقرب منه عدة قصور صغيرة لإقامة موظفي الدواوين، وفي الجزء الأخير من الفناء قاعة الديوان، حيث تعقد جلسات الإدارة العثمانية العليا، ويلاصقها مبنى الخزينة الخارجية وكان بابها يختم بختم الصدر الأعظم بعد انتهاء جلسات الديوان.

وينتهي هذا الفناء الثاني من جهة الشمال حيث توجد بوابة تؤدي إلى قصور الحريم، وعرفت هذه البوابة في عصور الخلافة العثمانية باسم «بوابة السلطانة»، وكانت تحرسها كتيبة من الطواشية السود وبعدها بوابة أخرى تؤدي إلى القاعات الخاصة بالسلطان وحاشيته المقربة وخدمه، ولم يكن يسمح لأي شخص بالدخول إلى هذا الجزء من السراي إلا بإذن خاص من السلطان في ما عدا الخدم الذين يدخلون هناك بإذن من أغا الباب أي رئيس الحرس الخاص المؤلف من كتيبة من الطواشية البيض.

وبعد البوابة الثالثة توجد قاعة الديوان العام، وهي عبارة عن قاعة كبيرة مربعة خلفها

غرفة أخرى للخدمة، ومجموعة من حجرات تستعمل في استقبال ذوي الحاجات، وكان السلطان العثماني ينظر في المظالم ببعض هذه الغرف.

وقد أطلقت على الأبواب الثلاثة الرئيسية أسماء مختلفة، فأولها هو «الباب السلطاني»، والأوسط منها عرف منذ تشييده في عهد سليمان القانوني باسم «باب السلام»، أما الأخير فيعرف باسم «باب السعادة»، وخلف كل باب فناء مكشوف تتوزع حوله الوحدات المعمارية لسراي طوب قابي، ومن أهم الوحدات المطلة على الفناء الثاني «مطابخ سنان»، والاسم يعود لأشهر مهندسي الخلافة العثمانية وآثاره موجودة أيضا في القاهرة، ممثلة في جامع سنان باشا، وهو يعتبر من أجمل الأعمال المعمارية في القصر، فهو يتألف من قسم رئيسي واسع مغطى بـ٢٠ قبة وله مداخن عالية وكان يعمل في هذا المطبخ السلطاني ما يزيد على ألف شخص يقومون بإعداد الطعام لنحو ٥ آلاف من المقيمين في السراي.

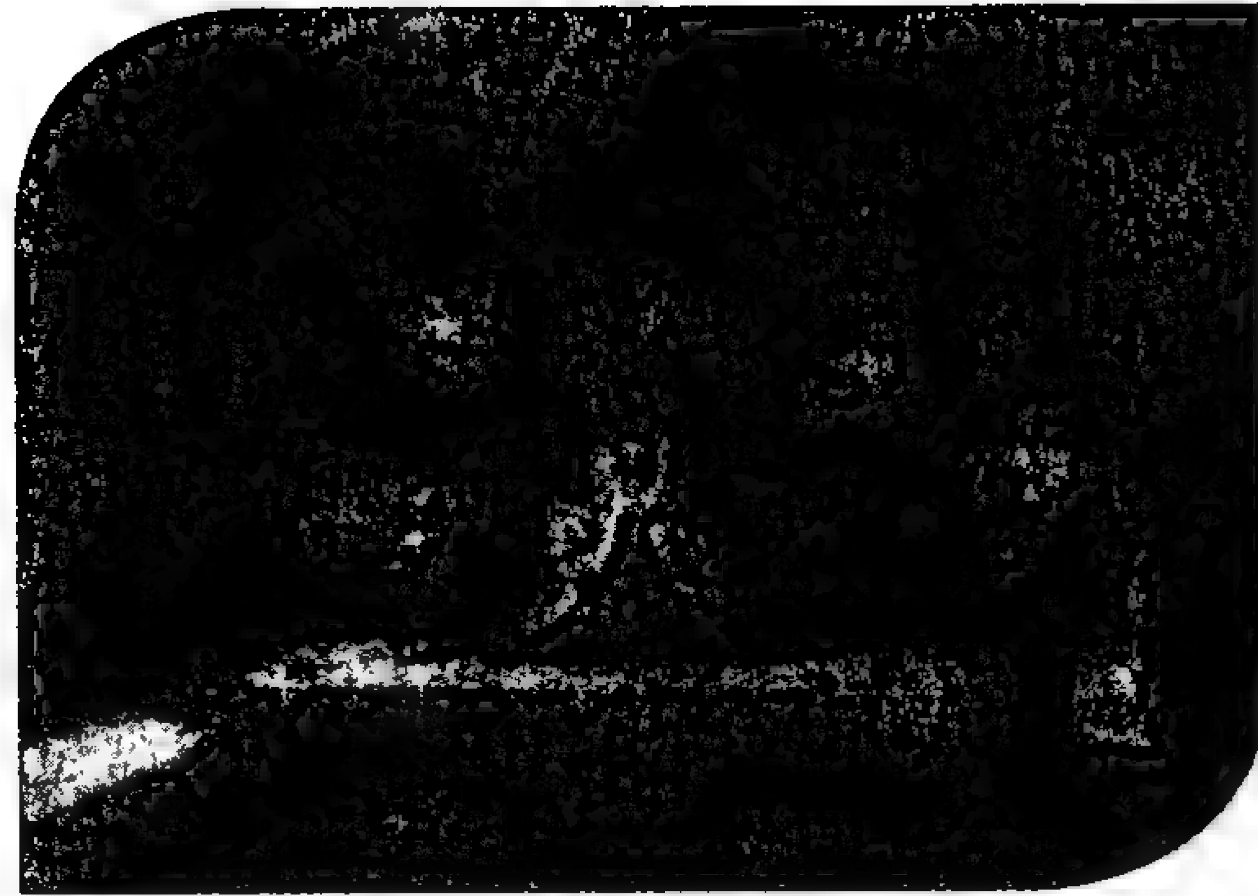
وقبل الوصول إلى باب السعادة من الناحية الشمالية الغربية يجد زائر سراي طوب قابي قاعة الديوان الكبير أو قاعة المجلس المعروفة في التركية باسم «قبة آلتي» أي القبة الذهبية.

ووراء باب السعادة يوجد مقر سكن الخليفة، ويحتوي هذا الجزء من القصر على عدة قصور أقدمها مبنى الخزانة الذي كان في الأصل قصرا للسلطان محمد الفاتح وشيد في عام ١٤٦٨، وهو مبنى بسيط متناسق، يتألف من أربع قاعات مربعة ذات قباب يتقدمها رواق خارجي.

وهناك الحرملك الذي كان يعيش فيه حريم السلطان الذي يسبقه سبع غرف للخصيان تتحكم في المداخل الرئيسية.



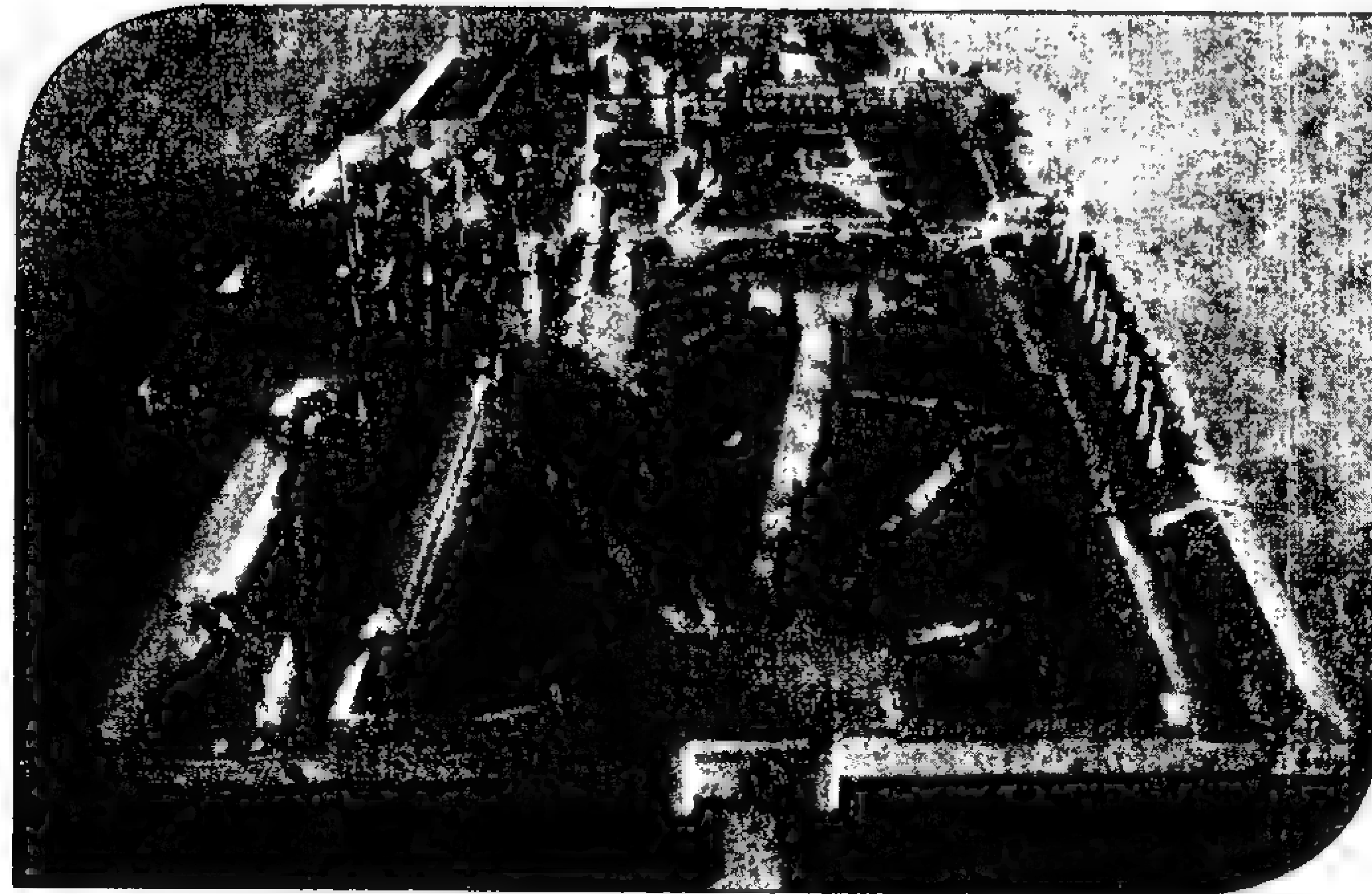
صالة بقصر طوب قابي مزينة بخزف أزنيك.



صورة لقصور العثمانيين.



صورة للقصر من الداخل.



مخطط للقصر كله.

نماذج من النفوذ النسائي في الحكم على مر التاريخ

شهد التاريخ على خراب الممالك والدول بسبب تدخل نساء القصر أو الحكم في شؤون الدولة وكيف كانت تحاك الدسائس والمؤمرات بين الحريم الملكي والسلطاني للوصول إلى قلب السلطان أو الملك ومن ثم التحكم والتسلط في إدارة شؤون البلاد ثم الانتهاء إلى خراب ودمار الدولة كما حدث في الدولة العثمانية وغيرها من الممالك عبر التاريخ نذكر بعضها على سبيل التذكرة، فكما يقول المثل أو الحكمة: إذا أردت خراب مملكة فسلط عليها النساء.

ففي العصر الفرعوني يذكر التاريخ أشهر الدسائس في الأسرة العشرين أي عصر الملك رمسيس الثالث التي دبرت إحدى زوجاته وتدعى «تي» مؤامرة لاغتياله مع عدد من الجواري والخدم كي تجعل ولدها «بنتناور» وريثاً للعرش بدلاً من ابن الملك الآخر «رمسيس الرابع»، وقد لجأت الزوجة إلى السحر للتخلص من الفرعون، إلا أن المؤامرة انكشفت وحكم على الابن بنتناور بالإعدام وأمه.

وشهد العصر البطلمي نفوذ «أرسينوي» زوجة بطليموس الثاني الذي كان يستشيرها في أمور الدولة والسياسة الخارجية، وقد أطلق على مدينة في الفيوم اسمها تخليداً لها.

وشهدت مصر أيضاً في العصر الفاطمي نفوذ «ست الملك» أخت الملك الحاكم بأمر الله التي كانت لديها شهوة عظيمة في الحكم فقامت بمؤامرة لقتل شقيقها

الحاكم بأمر الله كي تمكن ابن أختها الآخر الخليفة الظاهر من الحكم كي تحكم باسمه مصر، وكانت «ست الملك» قد استطاعت التمكين من قبل لأخيه الحاكم بأمر الله من تولي الحكم وهو ابن الحادية عشرة وكانت هي في السابعة والعشرين من عمرها فكانت تحكم مصر باسمه، وكي يتم لها ذلك قامت بالتخلص من ابن عمار وبرجوان اللذيْن حاولا إيقاف نفوذها، ولما كبر الحاكم بأمر الله وتمكن من مقاليد الحكم قامت بالتخلص منه وقتله في المقطم وإخفاء جثته ثم أتت بابن أخيها وألبسته تاج الحكم وعرف باسم الخليفة الظاهر الفاطمي.

وشهدت مصر في نهاية العصر الأيوبي أكبر صراع على السلطة والحكم شاركت فيه نساء القصر وكان ذلك في نهاية عصر الحاكم الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب حيث قامت زوجته شجر الدر بإحضار ابن الملك توران شاه وتولى الحكم وقيادة الجيش ضد الحملة الفرنسية على مصر، ثم قامت بالتخلص منه بالقتل بواسطة المماليك ثم إعلان نفسها ملكة على مصر وكانت شجر الدر إحدى جواري الملك الصالح وقد أعتقها وتزوجها وقربها منه وأحبها كثيراً حتى أنه كان يستشيرها في كل أمور الحكم والسياسة، وهي قصة تماثل قصة الحب الأسطوري بين السلطان سليمان القانوني وروكسلانا إلا أن سليمان القانوني لم يكن يشاور روكسلانه في أمور السياسة، إلا أنها تدخلت بمؤامراتها في أمور الحكم.

وظهرت براعة شجر الدر في المؤامرات والدسائس حين قامت بالتخلص من توران شاه بعد أن أحضرته لمصر وأخفت خبر وفاة زوجها حتى لا تفت في عضد الجيش الذى يقاتل لويس التاسع وجنوده في المنصورة. ولما وصل توران شاه قائد الجيش الأيوبي ونجل الملك الصالح وأراد أن يعيد شجر الدر إلى الحرملك ويستأثر بأمور البلاد هنا فكرت السلطانة في التخلص منه واستغلت في ذلك خوف المماليك البحرية وعلى رأسهم الأمير أقطاى من طريقة توران شاه في التنكر له وشكوا في أنه ينوى إبعادهم لصالح رجاله المقربين فاتفق الجانبان على التخلص من توران شاه قبل أن يقوم هو بالتخلص منهم.

ولم تجد غضاضة في أن تنقلب على أقطاى حين شعرت منه بالخطر بعد أن اختارت الزواج من منافسه وعدوه عز الدين أيبك.

لكن أيبك ارتكب الخطأ نفسه الذى ارتكبه توران شاه حين تنكر لشجر الدر وأشعل الغيرة في قلبها بتردده الزائد على زوجته وأم ولده على ثم أعلمها بنيته في الزواج من أخرى وهنا قررت شجر الدر التخلص منه ليخلص لها كرسى العرش لكن ضرتها «أم علي» لم تتركها تستمتع بالحكم فقامت بتقديم الرشوة لحكام القصر وقامت بقتلها بمعاونة الجوارى بالقباقيب وألقوا بجثتها من فوق أسوار القلعة لتنتهى أسطورة شجر الدر الجارية التى انتقلت من مرتبة الحريم إلى زوجة السلطان إلى السلطنة نفسها.

وتعددت النماذج في الدولة العثمانية لحكم الحريم وأشهرهن السلطانة صفية صاحبة المسجد الضخم المعروف باسمها في شارع محمد على بالقاهرة، وقد كان لها نفوذ كبير في شؤون الدولة العثمانية بوصفها زوجة السلطان مراد الثالث نافستها فيه أم السلطان «نوربانو» والعجيب أن هذه المرأة كانت حريصة على أن ينشغل ابنها السلطان بالجوارى مستغلة في ذلك شغفه بالنساء حتى تتمكن من الانفراد بالسيطرة على أمور الحكم. أضف إليها شقيقة السلطان إسمات ونفوذها خصوصا أن زوجها كان الوزير الأول للسلطان.

ووصلت مكانة السلطان مراد الثالث إلى الحد الذى كان فيه لمسؤولة الحريم السلطانى نفوذٌ كبير في إدارة أمور البلاط، لكن تبقى الملكة صفية الأكثر توحشا فتلك المرأة التى كانت مجرد جارية من البندقية بعد أن توفى زوجها طلبت من ابنها «محمد الثالث» أن تتصدر العرش لأخذ عزاء زوجها الراحل وبينما كان ولدها مشغولا بترتيبات الجنازة أمرت المماليك فذهبوا لخنق إخوته الثمانية عشر وهم من نساء أخريات حتى يظل ابنها هو الوريث الوحيد للعرش وأرسلتهم إلى ضريح زوجها ليدفنوا معه وأخبرت ابنها بأن والده فعل الشيء مع إخوته الخمسة.

وكان محمد الثالث مستسلما لوالدته التى ظل نفوذها في البلاط حتى تولى حفيدها

السلطان أحمد الحكم وعمل على إبعادها في قصر بناه لها على ضفاف البوسفور وحتى مسجدها الشهير في شارع محمد على فقد كان يخص أحد مماليكها فلما توفى قبل استكماله استولت عليه بدعوى أنه مملوكها ولم تعتقه وأمرت باستكماله ليحمل اسمها ويخلد ذكراها.

وشهد العصر العباسي أيضاً صراعات حريم الخليفة على الحكم وتدخلهن في السياسة حتى أفسدوا الدولة كما حدث للخليفة المقتدر بالله الذي راح ضحية امرأتين هما أمه «شغبى» التي لم تكن إلا جارية استطاعت بالحيلة أن تصل إلى قلب الخليفة المعتضد ويتزوجها وأنجبت له ولده المقتدر، والمرأة الأخرى مربيته «أم موسى» التي كان لها نفوذ في نفسه جعلها تستطيع أن تعزل الوزراء، وانتهى الأمر بالخليفة المقتدر بانقلاب العسكر عليه وقتله وهو شابٌّ في الثلاثينيات من عمره.

ودور الحريم الملكي السلطاني في كل القصور الملكية وتدخلهن في أمور السياسة والحكم خطير وهام وهو أمر معروف في كثير من دول وممالك العالم وأيضاً في الدول المعاصرة التي أخذت بنظام الحكم الجمهوري اسماً وأرادت توريث الحكم كما حدث في مصر مؤخراً في عهد مبارك وزوجته.

3

السلطان العاشق

- سيرة السلطان سليمان القانوني.
- التعلم في الصغر كالنقش على الحجر.
- زواج مبكر.

سيرة السلطان سليمان القانوني

هو سلطان الدولة العلية العثمانية وخليفة المسلمين الخليفة الثاني والسلطان العاشر للعثمانيين حيث أن أباه السلطان سليم الأول هو أول من حمل لقب خليفة المسلمين بعد فتحه مصر، فالسلطان سليمان خان الأول ابن سليم خان الأول ابن بايزيد خان الثاني ابن محمد الفاتح ابن مراد الثاني ابن محمد الأول جلبي ابن بايزيد الأول ابن مراد الأول ابن أورخان غازي ابن عثمان بن أرطغل، كان عاشر سلاطين الدولة العثمانية وصاحب أطول فترة حكم من ٦ نوفمبر ١٥٢٠ حتى وفاته في سنة ١٥٦٦ خلفا لأبيه السلطان سليم خان الأول وخلفه ابنه السلطان سليم الثاني.

عرف عند الغرب باسم سليمان العظيم وفي الشرق باسم سليمان القانوني لكثرة ما وضعه من قوانين.

قاد سليمان الجيوش العثمانية لغزو المعاقل والحصون المسيحية في بلغراد ورودوس وأغلب أراضي مملكة المجر قبل أن يتوقف في حصار فيينا في ١٥٢٩م.

ضم أغلب مناطق الشرق الأوسط في صراعه مع الصفويين ومناطق شاسعة من شمال أفريقيا حتى الجزائر. تحت حكمه، سيطرت الأساطيل العثمانية على بحار المنطقة من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر حتى الخليج.

شهدت مدينة طرابزون التركية العثمانية الواقعة على سواحل البحر الأسود مولده

في ٦ نوفمبر ١٤٩٤م حين كان والده سليم الأول حاكماً لها قبل توليه حكم الدولة العثمانية، وأمه هي عايشة حفصة سلطان أو حفصة خاتون سلطان، وقيل ولد في ٢٧ أبريل ١٤٩٥م.(١)

حينما بلغ سبع سنوات، ذهب ليدرس العلوم والتاريخ والأدب والفقه والتكتيكات العسكرية في مدارس الباب العالي في القسطنطينية.

تولى سليمان الشاب وعمره سبع عشرة سنة منصب والي فيودوسيا ثم ساروخان (مانيسا) ولفترة قصيرة أدرنة، وصحبه في فترة الطفولة عبد يدعى إبراهيم وهو الذي سيعرف فيما بعد بإبراهيم باشا (الصدر الأعظم).

بعد وفاة والده سليم الأول (١٤٦٥-١٥٢٠)، دخل سليمان القسطنطينية وتولى الحكم كعاشر السلاطين العثمانيين.

يقدم مبعوث جمهورية البندقية، بارتلوميو كونتاريني، أقدم وصف للسلطان بعد أسابيع من توليه الحكم فيقول:يبلغ من العمر الخامسة والعشرين، طويل ونحيف، وبشرته حساسة، عنقه طويل قليلا، وجهه رقيق ومعقوف الأنف. شارباه متدليان ولحيته قصيرة ومع ذلك له طلعة لطيفة مع بشرة تميل إلى الشحوبة. يقال إنه حكيم ومولع بالدراسة والتعلم وكل الرجال يأملون الخير من حكمه وله عمامة كبيرة للغاية.

وبدأ في مباشرة أمور الدولة، وتوجيه سياستها، وكان يستهل خطاباته بالآية الكريمة ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، والأعمال التي أنجزها السلطان في فترة حكمه كثيرة وذات شأن في حياة الدولة.

في الفترة الأولى من حكمه نجح في بسط هيبة الدولة والضرب على أيدي الخارجين عليها من الولاة الطامحين إلى الاستقلال، معتقدين أن صغر سن السلطان الذي كان في السادسة والعشرين من عمره فرصة سانحة لتحقيق أحلامهم، لكن فاجأتهم عزيمة السلطان القوية التي لا تلين، فقضى على تمرد «جان بردي الغزالي» في الشام، و«أحمد باشا»

١- انظر تاريخ الدولة العثمانية، محمد فريد بك المحامي، تحقيق: د. إحسان حقي.

في مصر، و«قلندر جلبي» في منطقتي قونيه ومرعش الذي كان شيعيًّا جمع حوله نحو ثلاثين ألفًا من الأتباع للثورة على الدولة.

كان العداء متبادلا بين ملك فرنسا فرنسوا الأول وشارل الخامس (شارلكان) ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فكان شارل الخامس بموجب ذلك يحكم أجزاءً شاسعة من أوروبا بما فيها ألمانيا وهولاندا والنمسا والمجر وغيرها، ولأن الملك الفرنسي لم يكن يملك القوة الكافية لمنازلة غريمه ومنازعته على لقب الإمبراطور، حاول التقرب من الدولة العثمانية.

ذهب وفد فرنسي إلى سليمان القانوني يطلب منه مهاجمة بلاد المجر في سبيل تشتيت جيوش شارلكان وإضعافها، واكتفى السلطان بكتاب من طرفه يَعِدُ فيه بالمساعدة وكان يريد الاستفادة من هذه الفرصة من أجل تسديد ضرباته لمملكة النمسا وتشديد الخناق على دول أوروبا، ومما يجدر الإشارة إليه أن استعانة فرنسا بما لها من قوة وثقل كاثوليكي مسيحي في أوروبا آنذاك بالدولة العثمانية المسلمة يعطي المطلع فكرة عما وصل إليه العثمانيون من قوة وصيت وعالمية في ذلك الزمان.

أثمر هذا الحلف بين الدولتين في إضعاف ممالك شارل الخامس والجمهوريات الإيطالية، فعلى الرغم أن الفرنسيين لم يستطيعوا الانتصار على الإسبان في الغرب إلا أن شارلكان خسر أراضيَ عديدة من أوروبا الشرقية، كما قامت القوات البحرية العثمانية-الفرنسية بقيادة خير الدين بربروس باستعادة مدينة نيس وجزيرة كورسيكا لصالح الفرنسيين كما انتصرت الأساطيل العثمانية على البحرية الإسبانية والإيطالية في مواقع عديدة.[١]

تعددت ميادين القتال التي تحركت فيها الدولة العثمانية لبسط نفوذها في عهد سليمان فشملت أوروبا وآسيا وأفريقيا، فاستولى على بلجراد سنة ٩٢٧هـ - ١٥٢١م وجزيرة رودس سنة ٩٢٩هـ، وحاصر فيينا سنة ٩٣٥هـ - ١٥٢٩م لكنه لم يفلح في فتحها،

١ - انظر كتابنا السلطان سليمان القانوني، الناشر دار الكتاب العربي.

وأعاد الكَرَّة مرة أخرى، ولم يكن نصيب تلك المحاولة بأفضل من الأولى.

ضم إلى دولته أجزاءً من المجر بما فيها عاصمتها بودابست، وجعلها ولاية عثمانية.

وفي إفريقيا، فتحت ليبيا والقسم الأعظم من تونس، وإريتريا، وجيبوتي والصومال، وأصبحت تلك البلاد ضمن نفوذ الدولة العثمانية، وهكذا اتسعت في عهده رقعة ومساحة الدولة العلية العثماتية.، واستمر حكمه نحو سبعة وأربعين عاماً وكان من السلاطين العثمانيين العظماء.



السلطان سليمان القانوني في شبابه.



السلطان سليمان القانوني في شيخوخته.

التعلم في الصغر كالنقش على الحجر

اهتم السلاطين العثمانيون بتعليم أولادهم في الصغر تمهيداً لتوليهم أمور الدولة والحكم، وكان مؤدب الأمير الصغير سليمان هو أهم شخصية في حياته فلقد لقنه أول درس في حياته العملية وهو طفل صغير.

جلس السلطان الشاب سليمان في حجرته ينظر من خلال نوافذ الحجرة يتذكر لقاءه الأول بمعلمه وأستاذه الحاج توفيق «معلم السلاطين» وقد أتت به والدته السلطانة عائشة كي يقوم بتعليم ابنها الصغير كما علم آباءه وأجداده العظام ولا ينسى سليمان قول أمه لمعلمه الحاج توفيق: سألتك بالله يا حاج توفيق ألا تحرم ابني الوحيد حكمتك وعلمك.

ابتسم معلم السلاطين وهز رأسه بالإيجاب وقال:

- سأفعل يا سلطانة رغم أنني قد نويت الاعتزال لكبر سني ولكني سأستمر في عملي والله الموفِّق.

نظر المعلم إلى الطفل سليمان وسأله:

- كم عمرك يا سليمان؟

- قال سليمان له: تسع سنوات.

أجلسه المعلم على كرسي ونظر إلى الأفق البعيد وكأنه يستحضر الماضي من الذاكرة:

- عليك أن تتذكر مقولة جدك الكبير أرطغل لابنه مؤسس الدولة الأمير عثمان الذي أصبح فيما بعد السلطان عثمان الأول.

- وما هي تلك المقولة أيها المعلم؟

- قال الأمير أرطغل لابنه عثمان: إذا حال بينك وبين كرسي الحكم أبوك فاقتل أباك، وإذا حالت بينك وبين كرسي الحكم أمك، اقتل أمك، وإذا حال بينك وبين كرسي الحكم أخوك، اقتل أخاك، وإذا حال بينك وبين كرسي الحكم ابنك اقتل ابنك، أنت تعلم أن أباك السلطان سليم الأول لم يعزل جدك السلطان بايزيد فقط وإنما دسّ له السمَّ في المنفى، أنتَ تعلمُ أيضاً أن أعمامك قضوا شنقا بأوتار الأقواس بأمرٍ من أبيك ورغم ذلك، العامة لا تكره أباك، ولا تنظر إليه كقاتل، أتدري لماذا؟

لم ينبس سليمان ببنتِ شفة واستأنف المعلم كلامه ودرسه الأول:

- لأن هذا القتل يعلي من قيمة رقاب الناس عند أنفسهم ولأن المكان الذي يحكم أحدهم من فوقه رقابَ ملايين الناس يستحق من أجله أن يقتل الابنُ أباه، والأبُ ابنَه، وكلما ارتفع الثمن المبذول من أجل الكرسي كلما ارتفعت قيمة رقاب الناس عند أنفسهم، هكذا تفكر الغوغاء، الفكرة مريعة، ولكنها حقيقة.

كان أبوك مولعاً بأعمامك وأتذكرُ جيداً كيف كان يلهو معهم وهو يتعلم في الكُتَّاب، ولكنه في نفس الوقت كان يدرك أنه عندما يكبر سيتواجه معهم، وأن كرسي الحكم لا يتسع إلا لرجل واحد، وأنه إذا لم يكن ذاك الرجل الجالس فوق الكرسي فإن هامته لا ريب ستكون فوقَ النطع .. هل تفهم هذا؟

هز الطفل سليمان رأسه بالإيجاب:

- أفهمُه.

- إذن أنتَ لا تحتاج إليّ كي تدركَ بغيتَك.

لكن السلطانة الأم استوقفت المعلم وقالت له:

- تمهَّل يا حاج توفيق، ما هذا الذي تقوله؟

- لم يبقَ في العمر أكثر مما مضى يا سلطانة، ولا أظن أن أبنك يحتاجُ مشورة رجل مثلي يطأ القبر برجله، ابنكِ يتفجر حياةً، لذا عليه أن يبتعد عن ظلال الموت من أمثالي وأنا أرى مخايل النجابة تلوح فوقَ جبهته، وسيكون أعظم سلاطين بني عثمان، إن شاء الله.

قالت الأم السلطانة:

- ولكن كل فتى في حاجةٍ إلى معلم.

قال:

- صحيح. وسأعهد بابنك إلى من هما أفضل مني.

قالَ هذا وهو يتراجع على أعقابه ليدخل حُجرتَه. عندما عاد، كان يمسك بين يديه سِفراً ضخماً ينوف على الألف صفحة، وقال للطفل سليمان:

- هل تعرفُ ما هذا يا سليمان؟

فقال سليمان باستغراب ودهشة وثقة:

- أرى كتاباً.

فقال المعلم الشيخ له:

- ليس أيَّ كتاب، إنه سِفر تاريخ، وهو المعلم الأول الذي أوصيك بالتتلمذِ على يديه، عندما تقرأ التاريخ سوف تفهم النواميس التي تحكم الكون؛ سوف تفهم كيف يفكر الرجال، وما الذي يثيرهم، كيف تُكسَب المعارك، ولماذا تندلعُ الثورات.

ومن التاريخ سوف تتعلم من تجارب الآخرين، أما من الدنيا فسوف تتعلمُ من تجاربك. لا تصعّر بخدك أو تنصرف عن صغائر الأمور زاعما أن السلطان لا يهتم إلا بالجليلِ منها، إن قدرة الله تتجلى في أكثر الأمور تفاهة، وقديماً قيل أن شيخا صوفيا وصَل مرحلة الكشف بعد أن تأمل دبيبَ النمل عشرين سنة.

افتح عينيك يا سليمان، ليس عينيك وحسب، وإنما أذنيك ومنخريك أيضا، استقبل كل ذرةٍ في هذا الكون، كل مشهد فيه، كل همسة، كل نسمة.

سأل سليمان معلمه سؤالاً ينم على حسن إدراكه لما يقوله معلمه:

- كم ساعة أنام إذن؟

قال المعلم:

- من يبغي السلطنةَ لا ينام.

سكت المعلم وأخذ يتأمل ملامح سليمان وكأنه ينتظر أن يتبين أثر الكلمات التي ألقاها على وجهه، كأنه يتوقع أن هذه الكلمات سوف تغير الصبي الواقف أمامه إلى الأبد. ثم قال:

- هنالك سلاح أكثر فتكا من السيف والبارود والمدفع، أتعرف ما هو؟

نظر سليمان إليه وحرك رأسه بالنفي، وصمت ينتظر إجابة المعلم، وعندما لم يجب سليمان أضاف المعلم هامساً:

- إنه سلاح الأسرار، أن تعرف ما يدور حولك وما يدور بعيداً عنك من أسرار الآخرين حتى لا تفاجَأ بشيء وأن تبادرهم بالهجوم المفاجِئ: إنه سلاح خطير يا سليمان لا تغفلَ عنه.

لم يتتلمذ سليمان على يديّ معلم السلاطين كباقي أجداده، ولكنْ هتان الكلمتان اللتان همس المعلم بهما إليه بقيتا كالقرطين لا تفارقان أذنيه. (من يبغى السلطنة لا ينام)، (الأسرار أشد فتكا من النار والبارود).

وصار سليمان لا ينام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات كي لا يفوته شيء مما يجري حوله، وهو ينصت إلى ما يدور على لسان حريم وخصيان القصر ليعلَم مَن يعشقُ مَن؟ ومَن يكرهُ مَن؟ ماذا يخفي ذاك عن السلطان؟ وما الأمر الذي لو عرفه السلطان نجمَ عنه سقوط رأسِ صاحبِه؟

هذه أسلحة أكثر فتكا وأشد ضرراً، المهم أن تعرف كيف تلتقطها ومتى تستخدمها، والأهم من كل ذلك أن تبقى مستيقظاً طوالَ الوقت كي لا يفوتك أمرٌ منها، هكذا أصبح وصار سليمان طوال حياته التي قضاها في الحكم وهي أطول فترة حكم قضاها سلطان عثماني في الحكم وهي أكثر من سبعة وأربعين عاماً.

سرعان ما تحقق سليمان من أهمية هذا السلاح الفاتك وعاين أثره، فبواسطة الأسرار استطاع أن يتفادى غضبة أبيه سليم العبوس حينما أرسل إليه في مغنيسيا قميصا مسموما. لولا أنه أنصت إلى شائعة خافتة انبثقت من أحد خصيان القصر بخصوص ثورة السلطان بعد أن قرأ رسالة ابنه وكيف أن السلطان أمر باستدعاء الطبيب والخياط الخاصين بالسراي مباشرة بعد أن أنهى الرسالة، لولا ذلك لما استطاع سليمان أن يتدارى تلك الغضبة الهوجاء، ولغدا تحت التراب جثة هامدة بدل الخصي الذي أمره بلبس القميص السلطاني عوضا عنه.

وكذلك بواسطة نفس هذا السلاح استطاع أن يضغط على الطبيب عباس أفندي ويجبره على أن يدلي بمعلومات سرية عن صحة السلطان، وإن كان ما سمعه عن تدهورها صحيحا، ورفض عباس أفندي في البداية الإجابة على أسئلة ابن السلطان عن أبيه، ولكن عندما هدده سليمان بكشف سره الخاص بإجهاض زوجة الشاه إسماعيل بعد أن وقعت أسيرة عند السلطان، عندها انصاع الطبيب الخائف لرغبة سليمان وكشف له كل ما يعرف. من خلال الطبيب عرف سليمان أن السلطان يعاني من مرض في فخذه، قد يكون خمجا أو سرطانا، وأنه لا يُرجى برؤه، وأن حياته لن تدوم أكثر من شهر أو شهرين. إذا كانت هذه المعلومة صحيحة فمن الأفضل أن يؤجل سليمان ضربته وأن يتصنع الجهل بفعلة والده حتى يموت السلطان في أرض بعيدة في إحدى مغازيه التي لا يتوقف عن شنها.

و هكذا، وبنفس السلاح أيضا، استطاع سليمان -و هو البعيد في مدينة مغنيسيا- أن يصل إلى الباب العالي في الوقت المناسب، قبل أن يُنادى بموت السلطان، وقبل أن يصل الخبر أغاوات الإنكشارية والسباهية الذين كان من شأنهم أن يتربصوا له ويعرقلوا

وصوله لو أتاح لهم فرصة تنظيم صفوفهم قبل أن يباغتهم في السراي.

أصبح سليمان مهتمًّا بمعرفة كل أسرار القصر والدولة ونشر الجواسيس من أجل ذلك واستطاع حكم مملكة تكاد تنافس مملكة الإسكندر في اتساعها، وأصبح يصغي ويخزن في عقله كل ما يتعلق بأي قائد أو ضابط من الإنكشارية والسباهية (الفرسان)، كل ما يتعلق برجالات الدولة ابتداءً من الوزير الأعظم برّي باشا، ومرورا بالدفتردار والقائمقام والسناجق والمتصرفين، وانتهاءً بالعبيد والخصيان والطباخين والكناسين. كل كلمة قالوها، كل بادرة افتعلوها، كل سر باحوا به في سورة غضب أو فورة سُكر، كل مغامرة ليلية أو غرام شائن اقتحموا من أجله لجج الليل.

بل إن أذن سليمان بقيت مصغية لما يجري في بلاطات وقصور وغرف أعدائه في المشرق والمغرب كي يعرف المؤمرات التي تدور في بلاط الملك هنري الثامن كي يتخلص من زوجته كاثرين الأرغونية لأجل محظية يعشقها تُدعى آن بولين، والأطماع التي يضمرها فرانسوا الأول بخصوص دوقية ميلان، والبابا الجديد الخائف كليمنت السابع والمحصور في أنقاض مدينته روما، والقس الجرماني الغريب مارتن لوثر والذي من شأنه أن يغير معالم المسيحية إلى الأبد، ومشاكل الإمبراطور شارل الخامس مع ابنه فيليب الكسيح، والمؤمرات التي تجري في بلاط الشاه إسماعيل الصفوي وابنه طهماست.

قطع على سليمان حبلَ أفكاره صوت الحاجب وهو يعلن قدوم رئيس القصر الداخلي إبراهيم باشا، صديق الطفولة وما زال صديق شبابه، فمنذ أن أُتي به من اليونان أسيرا، ومنذ أن تبين فيه معلموه مخايل النجابة، وهو لا يفارق سليمان ويلازمه كظله، فقد كان اليد اليمنى التي ساعدت سليمان على الوصول إلى كرسي السلطة وكان هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يبوح له سليمان ببعض الخواطر التي تشغله، وفوق كل ذلك كان الرفيق المناسب الذي يستأنس بصحبته حينما يخرج متنكرا في شوارع عاصمته يتفقد أحوال رعيته دون وسطاء كما كان يفعل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

غادر سليمانُ وإبراهيمُ باب القصر وأخذا يخبان الخطى جنوبا، باتجاه الجامع الذي

بناه السلطان محمد الثاني أحد أجداد سليمان، كانت الليلة باردة وهواؤها عذبا نقيًّا وعندما وصلا الجامع، وجدا ساحته خالية تماما.

جلسَ سليمان على إحدى مصطبات المكان، وأخذ يتأمل الليل والبلاط المرصوف ورغم الخواطر التي تشغله، ورغم الهموم والأسرار التي تعكر صفوه وتمنع نومه، آنسَ سليمان في نفسه خفة واصطحب إبراهيم في جولة في حدائق القصر.

وجلس السلطان سليمان في مقصورته بحديقة القصر ونظر إلى إبراهيم وقال: لقد عزمت أمري وأصدرت قراري بتعيينك الصدر الأعظم وزيادة راتبك، فإن الصدر الأعظم «بري باشا» قد أصبح كهلاً طاعناً في العمر وأحتاج إلى بديل له شابٍّ قوي يصاحبني في الفتوحات.

فاختلطت الفرحة في نفس إبراهيم باشا والخوف وقال:

- هذا شرف كبير يا مولاي ولكني أخشى حسد الحاقدين وأخشى أن يكون هذا المنصب سبباً يكدر علاقتي بمولاي.

فطمأنه سليمان بقوله: لك مني يا إبراهيم ما دمت حيًّا إنك لا تُظلم ولن تُسجن ولن تقتل ولن تطرد مذمماً.

انكب إبراهيم باشا على يد السلطان فقبلها، وبالفعل قام بعمله على خير وجه حتى حدث ما كان يخشاه من الوقيعة بينه وبين السلطان كما سيأتي ذكره في حينه من جراء مكائد روكسلانه زوجة سليمان الثانية.

حديث الذكريات:

جلس السلطان سليمان في حديقة القصر كعادته مع صديقه إبراهيم باشا الذي أصبح الصدر الأعظم بعد أن كان مسؤولاً عن القصر السلطاني وشؤونه وبعد زواجه من أخت السلطان الوحيدة «خديجة» وتجاذبا أطراف الحديث، والذكريات والتاريخ القريب فقد تذكر السلطان جده بايزيد الثاني الذي عرف ببايزيد الصوفي وعلاقاته بالدول الأوربية

والإمبراطورية الروسية:

- لقد كان مدة سلطنة جدي بايزيد الثاني بلا فتوحات تذكر يا إبراهيم فقد كان أغلب المعارك دفاعية على التخوم لصد هجمات الأعداء، فقد كان رحمه الله يحب السلم، وفي عهده تحسنت علاقات الدولة العلية مع الروس حيث وصل أول سفير روسي للقسطنطينية سنة ١٤٨١م محملاً بالهدايا للسلطان وبعدها بأربع سنوات جاء سفير آخر واستحصل من الدولة على بعض امتيازات للتجار الروس.

وفي عهده عقدت معاهدة بيننا وبين ملكة «بولونيا» سنة ١٤٩٠م.

وعاش جدي بايزيد في سلام لم يتكدر صفوه إلا في السنوات الأخيرة من حياته وحكمه حين قام أولاده بعصيانه، فقد كان له ثمانية أولاد ذكور توفى منهم خمسة في الصغر وبقي ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم أبي الذي كان محبًّا للحرب والقتال ومحبوباً من الجيش والإنكشارية.

قال إبراهيم باشا: لقد أراد السطلان سليم الأول يا مولاي زيادة رقعة الدولة العلية بالفتوحات، وهذا ما دعاه إلى الإمساك بزمام الأمور في الدولة.

ابتسم السلطان وأضاف: لقد أراد جدي تدريب أعمامي على الحكم ولاختلافهم في المشارب والآراء ففرق بينهم حتى لايقع الشقاق بينهم فعين عمي كركود على إحدى الولايات البميرة وعمي أحمد على ولاية أماسيا وأبي سليم على ولاية طرابزون وكذلك جعلني والياً على بلاد القرم، لكن أبي سليم أراد المزيد وأرسل إلى أبيه يطلب منه تعيينه على إحدى ولايات أوربا، فرفض جدي طلبه مما جعل أبي سليم يعلن تمرده عليه وجمع جيشاً جملة من قبائل التتر وسار به إلى جدي الذي سارع بتجهيز جيش أيضاً للتصدي لوالدي وانتهى الأمر بتعيين أبي سليم والياً على مدينتي سمندرية وودين. (١)

وكان هذا سنة ١٥١١م، وقام عمي كركود بالاستيلاء على ولاية صاروخان دون الرجوع لأبيه السلطان وهي ولاية قريبة من العاصمة العثمانية القسطنطينية، مما جعل

---

١ - حالياً تتبع دولة بلغاريا.

والدي يعلن نفسه سلطاناً على ولاية أدرنة، فأرسل جدي بايزيد جيشاً ردعه ورده إلى بلاد القرم و كذلك فعل بعمي كركود.

لكن فرقة الإنكشارية انحازت إلى والدي سليم ورجحت كفته وأعادته لولاية سمندرية مع استصدار أمر بالعفو من السلطان.

وتطور الأمر إلى قدوم سليم إلى القسطنطينية مع الإنكشارية للاحتفال به وطلبوا من السلطان الأب التنازل لابنه سليم عن العرش فوافق حقناً للدماء وذلك في ٢٥ أبريل ١٥١٢م وسافر السلطان بايزيد الثاني بعدها بعشرين يوماً للإقامة ببلدة ديموتيقا وتوفى في الطريق إليها يوم ٢٦ مايو ١٥١٢م بعد أن حكم الدولة العلية نحو اثنتين وثلاثين سنة ولم تزدْ رقعة الدولة العلية في عهده نتيجة حبه للسلام والسلم وكرهه للقتال.

قال إبراهيم باشا: رحم الله السلطان بايزيد الثاني كان محبًّا للخير والسلام، ورحم الله السلطان سليم الأول فقد نقل الدولة العلية من السلطنة إلى الخلافة وقيادة العالم الإسلامي بعد أن قام بفتح بلاد الشام ومصر والحجاز، وها أنت يا مولاي تستكمل مسيرته وتحق أحلام أجدادك محمد الفاتح في غزو بلاد المجر وأوربا وضم بلغراد وفتحت جزيرة رودس واستطاعت الجيوش العثمانية تحرير بلاد العراق وعاصمتها بغداد من احتلال الصفويين لها وخضعت لك ملوك أوربا.

نزل كلام إبراهيم باشا على السلطان برداً وسلاماً.

- الحمد لله يا إبراهيم فقد وفقنا الله عز وجل في رفع راية التوحيد في معظم بقاع الأرض. (١)

١ - اقرأ كتابنا السلطان سليمان القانوني، الناشر دار الكتاب العربي، لتتعرف على فتوحات هذا السلطان العظيم.

زواج مبكر

لا يقاس عقل وإدراك وخبرة الأمراء والملوك بالعمر والسن وإنما بالتربية التي يتلقونها، وقد كان العثمانيون الأتراك يولون الأمراء أبناء الملوك اهتماماً كبيراً منذ نعومة أظفارهم تمهيداً لتوليهم المسؤولية والحكم وهم في سن صغيرة، وكان يتم زواجهم في سن صغيرة أيضاً وهكذا فُعل بسليمان، فقد تزوج قبل بلوغه العشرين من زوجته الأولى «مهد فران» أو ناهد دوران، والتي أنجبت له ابنه الكبير الأمير مصطفى في عام ١٥١٥م، وقد مات له ابن آخر وهو صغير (اسمه محمود) لم يبلغ، وأيضاً مات له آخر عام ١٥٢١ وهو طفل يتعلم المشي.

ومهد فران ألبانية الأصل وتدعى بالألبانية وردة الربيع (Rosne Pranvere) وهي ابنة موسيقي ألباني ثري يدعى عبدالله رجاي، وكان لها أخ وحيد يدعى نقاشان آدم.

وكانت ناهد دوران ذات جمال وذكاء وكان سليمان يحبها كثيراً، ولكنها كانت لا تحسن السيطرة على غضبها.

وكان زواجها بسليمان وهو أمير لولاية «مانيسا» وأطلق عليها سليمان لقب «كلبهار» أي وردة الربيع، وانتقلت معه إلى استنبول بعد وفاة السلطان سليم الأول وتنصيب سليمان سلطاناً على البلاد عام ١٥٢٠م.

وهناك في قصر الخلافة والسلطنة استقبلت «مهد فران» غريمتها الجارية الروسية (الأوكرانية) روكسلانه والتي أغرم بها السلطان وأحبها وأعتقها ثم تزوجها.

4

روكسلانا في القصر السلطاني

- اللقاء الأول بين السـلطانة ناهد دوران والجارية روكسلانه «خورم».
- لقاء روكسلانه والسلطان والحب من أول نظرة.
- من هي الكسندرا أو روكسلانا؟
- روكسلانه ملهمة الفنانين عبر العصور.
- رسائل الحب بين روكسلانه والسلطان في معرض العشق السلطاني.

اللقاء الأول بين السلطانة ناهد دوران والجارية روكسلانه «خورم»

كانت ناهد دوران ترافق زوجها في سفره وتحاول أن تكون أجمل النساء في عينيه وكانت تستعين بوصيفتها المخلصة كوثر، تلك البنت اليتيمة التي كانت تعيش في الولاية التي يحكمها سليمان حين كان وليًّا للعهد، واهتمت السلطانة ناهد دوران بها وجعلتها صديقتها ووصيفتها المقربة.

كانت كوثر وأتباعها يخبرون السلطانة عند قدوم دفعة جديدة من الجواري إلى الحرملك لتتم معاينتها من السلطانة الزوجة التي كانت تصرف الجارية فائقة الجمال، أما العادية التي لا يمكن أن تعجب السلطان يتم ضمها للحرملك.

وذات يوم جاءت دفعة من الجواري كانت تضم «روكسلانا»، فالتقت وجهاً لوجه للمرة الأولى مع «ناهد دوران».

وكانت روكسلانه ذات جمال فائق لكن «ناهد دوران» كانت أجمل منها بكثير ودار حوار بين الاثنتين السلطانة الزوجة والجارية الجديدة حيث سألتها:

- ما اسمك؟

- أجابت: اسمي الكسندرا روكسلانا.

- قالت ناهد : ماذا تعرفين؟

- قالت: مراقبة الأطفال، والتزيين، والدف والعزف والرقص، وأعرف التجهيز للمناسبات يا مولاتي.

- ناهد: ربما لن نحتاج لعزفك ورقصك، ولكن قد تنفعين في مناسبات الحرملك، سنعينك مع جواري المناسبات.

وكانت المناسبات مثل حفلات الزواج، والاحتفال بولادة الأطفال، كذلك عيد الفطر والأضحى، وحفلات استقبال السلطان لما يرجع من حروبه وسفرياته.

ووافقت ناهد دوران على أن تكون روكسلانه من جواري القصر.

وبالتالي أوجدت ناهد دوران في الحرملك السلطاني في إسطنبول لها منافسة جديدة على قلب السلطان وهي تلك الجارية الروسية الكسندرا «روكسانا» التي سماها السلطان سليمان فيما بعد «خريم» بضم الخاء أي الباسمة، وعرفت في مسلسل حريم السلطان باسم «هويام» والتي استطاعت بدهائها السيطرة على قلب السلطان سليمان منذ شبابه حتى شيخوخته.



السلطانة ماه دوران أو ناهد دوران الزوجة الأولى للسلطان سليمان.



صورة للسلطانة ناهد دوران.



على اليمين صورة السلطانة ناهد دوران الأصلية وعلى اليسار صورة الممثلة التي قامت بدورها في مسلسل حريم السلطان.



صورة السلطانة ناهد دوران الأصلية وصورة الممثلة التي أدت دورها.



صورة زيتية للسلطانة ناهد دوران.

لقاء روكسلانه والسلطان والحب من أول نظرة

ذات مساء، وبعد أن انصرف السلطان من أعماله، وبينما كان يتمشى في المعبر الواصل بين جناح نومه والسراي، إذا بعينيه تقعان على جارية قصيرة تجلس على حافة نافورة وقد أحاطت بها أشجار الدلب والسرو والصنوبر. كانت الجارية حافية القدمين، وتغسل وسط الماء تفاحة حمراء ناضجة. اقترب سليمان منها قال لها:

- من أينَ لكِ التفاحة ؟

- قالت: قطفتها.

- فقال لها: من أين؟

- قالت له: من هناك.»

أشارت إلى شجرة تفاح عالية وأسفل الشجرة، كان فردتا حذاء الجارية ملقيتين بجانب الحائط.

فقال لها وكأنه يؤنبها:

- ويحك! تسلقتِ الشجرة؟

- هزّت الجارية رأسها إيجابا.

- فقال: ألم يخبرك أحد أن تسلق الأشجار ممنوع في القصر؟ تصرف مثل هذا من

شأنه أن يجعلك مكشوفة لمن في الخارج. لا أحد يستطيع أن يرى حريم السلطان ويظل حيًّا!!.

ثم علا صوتُه:

- إذن فالويل للطائر الذي حلق فوق رأسي قبل قليل.

ثم نظر إليها وقد ظهرت أمارات الخوف على وجهها:

- أنا لا أمزح. ما اسمكِ يا فتاة؟

قالت بصوت خائف خافت:

- خُرم.

فأعاد عليها كلامه الجاد:

- أنا لا أمزح يا خُرم، يجب أن تخضعي لأعراف السراي، عقوبة من تنتهك التعليمات شديدة الوطأة.

فقالت له تستعطفه:

- كرم مولاي أكبر من أن يضيق بجهل جاريته. أنا جديدة في السراي، لم أصل هنا إلا قبل أسبوعين، كما أن هذه التفاحة هدية إلى السلطان.

وفجأة، قضمت الجارية التفاحة ثم وضعتها في راحة السلطان.

بُهتَ سليمان أمام هذا التصرف الجريء، لكنها أتبعت فعلتها بقولها:

- في بلادي يا مولاي، إذا عزمت إحداهنّ أن تخبر من تحب بمكنون قلبها تركت لديه تفاحة مقضومة.

قالت هذا وهي تسرع نحو شجرة التفاح لترتدي فردتي حذائها ثم تغيب بعيدا تحت أقواس بوابة السراي.

هكذا كان اللقاء الأول بين السلطان والجارية الروسية الأصل، عاد السلطان إلى غرفته وهو يفكر في أمر هذه الجارية الجميلة الجريئة التي خطفت قلبه ولب عقله من أول نظرة، ولأنه يحب الأسرار ومعرفة كل شيء عمن حوله، سأل عنها مسؤول القصر وصديقه القديم إبراهيم باشا.

من هي الكسندرا أو روكسلانا؟

روكسلانا أو الكسندرا أو خُرم سلطان أو أم محمد أسماء كثيرة عرفت بها تلك الجارية الأوكرانية التي عشقها السلطان سليمان من أول لقاء أو من أول نظرة كما يقولون وظل يعشقها حتى الموت.

منذ أن رآها في القصر وقد شغلت تفكيره وعقله وقلبه مما دعاه إلى سؤال رئيس القصر وقتها صديق عمره إبراهيم باشا الذي سيصبح وزيره الأول فيما بعد:

- ماذا تعرف عن الجارية الجديدة روكسلانه يا إبراهيم؟

- إنها يا مولاي جاءت إلى القصر مهداة من تتار القوم وموطنها مدينة روهاتين (Rohatyn) الواقعة شرقي أوكرانيا، ويقال إن والدها قس أرثوذكسي أوكراني، وقد جاءت هذا العام ١٥٢٠م، واسمها الأصلي الكساندرا ليسوفسا [1] وهي من مواليد عام ١٥٠٦م.

١- اشتهرت روكسلانا زوجة السلطان سليمان بالكثير من الأسماء والألقاب ففي المصادر العثمانية تذكر بالسلطانة خُرم وهذا الاسم معناه بالتركية الضاحكة، أو الباسمة وتعرف باسم «روكسولينا» وبعد اسلامها عرفت بـ «هوريم» أو «خُرويم» وتم دبلجته في المسلسل التركي إلى «هويام» وكذلك عرفت روكسلانا، وركسولانا، وروكسلين، وروساووزيكا، وتطلق الأدبيات الأوكرانية عليها اسم «أناستاسيا / ناسيتا» واشتهرت عند العرب باسم هيام أو هويام في مسلسل حريم السلطان.
وقد تزوجت بالسلطان بناءً على رغبتها بعد أن كانت سيدة يطلق عليها لقب «قادين» وهو ما يجعلها مثل الزوجة في البروتوكول العثماني وتظفر بمعاملة مثل التي تلقاها السلطانات من حيث الاحترام والتبجيل ويخصص لها جناح في الحرم السلطاني وكلمة «قادين» بالتركية تعني السيدة ذات المنصب الاجتماعي المحترم مثل «خاتون» وللسلطان أربع قادينات.

ورغم أن روكسلانه لم تتمتع بجمال يفوق جمال ناهد دوران إلا أنها كانت تتمتع بذكاء أنثوي خارق وروح مرحة وجاذبية جعلت السلطان سليمان يتعلق بها وضمها إلى حريمه فلم يمض عام على دخولها إلى الحريم السلطاني حتى أنجبت له ولداً ثم آخر وأصبحت الزوجة الثانية للسلطان بعد إشهار إسلامها.

أطلق عليها السلطان اسم خُرم (خورم) أي الباسمة حيث إن الابتسامة كانت لا تفارق شفتيها.

وقد ذكر الدبلوماسي النمساوي هانز ير تشاوم الذي عاش في إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية عام ١٥٥٥م في مذكراته أن نفوذ روكسلانه كان عظيماً في القصر وعلى السلطان مما جعل البعض يتهمها بالسحر، ويقول إن سليمان وقع في حب تلك الفتاة المجهولة العائلة والتي يغلب الظن أنها من أصل روسي فأعتقها وسمح لها بالانتقال للعيش في نفس القصر الذي يقيم فيه.

وقد اختلف المؤرخون حول ديانة روكسلانه فقيل إنها مسيحية أرذثوكسية ووالدها قس أوكراني، وهناك من قال إنها يهودية الأصل ولكن دون سند، ولعل القول بذلك يعود لمسلكها في القصر من تدبير المؤامرات واتهامها بتقويض الدولة العثمانية لصالح الدول الأوربية والصفوية.

وذكر دير نشاوم في مذكراته أن روكسلانه انتهزت الفرصة لكى تنتقل إلى السراي الكبير الذي أصبح منذ عهد محمد الفاتح مركزاً للحكومة، وفيه كان ينام سليمان حين لا يشعر بالرغبة في زيارة الحريم.

بعد انتقال روكسلانه إلى السراي الكبير أمرت ببناء باب بين جناحها الجديد وبين جناح السلطان وبذلك أصبحا لا يفترقان، وبدا أنها حققت طموحاتها، لكن بقيت تعترضها عقبتان: الأولى كون الأمير مصطفى الذي آمن الجميع على أنه سيخلف والده كونه محبوباً عند الشعب، فكانت إزاحته عن طريق ابنها سليم بالمهمة الصعبة، بالإضافة إلى هذا فإن روكسلانه لم تبد ارتياحاً لعلاقة السلطان مع الصدر الأعظم إبراهيم باشا.

فقد كان إبراهيم باشا عبداً من أصل يوناني، وقد تعرف عليه سليمان القانوني قبل أن

يتولى الحكم، ثم ما لبث أن ضمه إلى حاشيته حين أصبح سلطاناً، أي قبل توليه الحكم، ثم ضمه إلى بلاطه حين أصبح سلطاناً. وقد كان سنهما متقارباً ولا يكادان يفترقان، فكانا يتناولان طعامهما سويًّا ويقيمان في خيمة واحدة حين كان يتوجه السلطان إلى ميدان القتال، بل أحياناً كانا ينامان على سرير واحد. وكان إبراهيم صديقاً مخلصاً للسلطان ومستشاراً له.

بمرور السنين ازدادت صداقتهما عمقاً، بحيث تبوأ إبراهيم منصب الصدارة العظمى بعد تولي سليمان السلطنة بثلاث سنوات، وبالتدريج طرأ تغيير على أسلوب حياته بعد أن أصبح يتطلع إلى منافسة السلطان في الأبهة والجاه: فانتقل ليعيش في قصر شيد على نمط قصر السلطان، وكان يتلقى هدايا قيمة، ممن كانوا يسعون إلى تولي الوظائف، وكانت له «ذهبية» (قارب) خاصة، لها ٢٤ مجدافاً، وكان يحيط به حرس شرف يتكون من ثمانية رجال، وكان السلطان يمنحه راتباً بلغ ضعف راتب الصدر الأعظم السابق.

وأخيراً عرض السلطان على إبراهيم أخته لكي يتزوجها عام (١٥٢٤) وشهدت العاصمة احتفالات ضخمة بهذه المناسبة استمرت تسعة أيام، وكان ثقة السلطان في إبراهيم بلا حدود، باعتباره قائداً عسكريًّا وكبيراً للوزراء.

فرغم غروره وعدم تردده في قبول الهدايا، إلا أنه كان يقوم بمهامه وبمسؤولياته بكفاءة نادرة سواء في ميادين القتال أو في شؤون الدولة.

ويعلق السفير النمساوى غيزان دوبوسبك الذى خدم في تركيا بين عام ١٥٥٥ وعام ١٥٦٢م فيحدثنا في مذكراته عما وصلت إليه السلطانة روكسلانه من مكانة عند السلطان سليمان فيقول:

حصل سليمان على بعض أبناء آخرين من روكسلانه الذى دفعه حبه لها إلى منحها موقع الزوجة الشرعية وتخصيص مهر لها ومعروف أن تخصيص المهر هو الأسلوب الأضمن لإعلان الزواج الشرعى عند الأتراك وبهذه السابقة سجل سليمان سابقة وخرج عن التقاليد والعادات التى كانت معتمدَة لدى من سبقه من السلاطين.

حيث إن الإهانة التي واجهت جد السلطان سليمان (بايزيد الأول) حين هزمه تيمورلنك المغولي الأصل في معركة أنقرة عام ١٤٠٢م وأسره وسبَى زوجاته وجعل زوجته الصربية الأصل وتدعى «ماريادسيينا» على أن تقوم بخدمته خلال حفل انتصاره وهي عارية تماماً مما أدى إلى وفاة السلطان بايزيد الأول غمًّا وكمداً.

ولم يعقد منذ ذلك الوقت سلاطين آل عثمان زواجاً رسميًّا حتى لايتعرضوا لمثل تلك الإهانة في أشخاص زوجاتهم حتى جاء سليمان ليتزوج روكسلانه رسميًّا وشرعيًّا مما أغضب أمه لذلك الزواج.

ونظراً لحب السلطان الشديد لها وتنفيذه لأوامرها اعتقد أهل القصر أنها قد سحرت السلطان فكانوا يطلقون عليها اسم «الساحرة». وهكذا أصبحت هي وأولادها مثاراً لبغض الجيش والبلاط، وإن لم يجرؤ أحد في الإفصاح للسلطان عن مشاعره، ولم أسمع أحداً يذكرها هي ونسلها بسيرة خير، في الوقت الذي كانوا يكيلون المديح للأمير مصطفى ووالدته ناهد دوران «جلبهار».

وهو ما سجله مؤرخ من البندقية كان قد زار العاصمة العثمانية بقوله: «إنه يكن لها من الحب ويمنحها من الثقة ما يثير دهشة جميع رعاياه، الذين يعتقدون أنها سحرته ويطلقون عليها اسم «الساحرة».

وهكذا أصبحت هي وأولادها مثاراً لبغض الجيش والبلاط، وإن لم يجرؤ أحد في الإفصاح للسلطان عن مشاعره، ولم أسمع أحداً يذكرها هي ونسلها بسيرة خير، في الوقت الذي كانوا يثنون في المديح على الأمير مصطفى ووالدته.

ورغم أن الحقوق التي حصلت «روكسلانا» باعتبارها سلطانة قد جعلتها تقف على قدم المساواة مع جلبهار الغائبة، ورغم أن عواطف سليمان الجياشة نحوها، حيث ميزتها على جميع نساء القصر، فإنها طلبت منه أن يعقد قرانه عليها، وكان ذلك أمراً لم تجر به العادة، منذ الإهانة التي واجهت السلطان «بايزيد الأول»، في أعقاب هزيمة أنقرة (١٤٠٢م) أمام تيمورلنك، وذلك في شخص زوجته الصربية الأصل «ماريا»،

فقد أرغمها «تيمور» المنتصر على أن تقوم بالخدمة خلال حفل انتصاره وهي عارية تماماً، مما أدى إلى وفاة زوجها كمداً.

ومنذ ذلك الوقت لم يعقد سلاطين آل عثمان زواجاً رسميًّا، وذلك حتى لا يتعرضوا لإهانة مماثلة في أشخاص زوجاتهم إلا أن «سليمان» استسلم لرغبات «روكسلانا»، فعقد قرانه عليها، وشهدت العاصمة العثمانية لهذه المناسبة احتفالات لم يسبق لها مثيل امتدت اسبوعاً كاملًا، تلقت خلاله «روكسلانا» الهدايا الثمينة من كبار موظفي الدولة وحكام الأقاليم.

وبينما هي تخطط لإزاحة منافسيها والتغلب عليهم، واجهت مشكلة صغيرة، ولكنها معقدة ألا وهي المسافة التي كانت تفصل السراي عن الحريم. فقد كان مقر هذه الأخيرة (حتى أواسط القرن السادس عشر) في السراي القديم الذي شيده «محمد الفاتح» على إثر استيلائه على القسطنطينية عام ١٤٥٣. ولكن لم يجعل منه خلفاؤه قاعدة للحكومة، لهذا شعرت «روكسلانا» بأن الحياة ستكون أسهل بالنسبة إليها إذا ما عاشت هي وزوجها تحت سقف واحد، وساعدها على نيل مآربها نشوب حريق في العاصمة في عام ١٥٤١ أدى إلى تدمير جزء كبير من السراي القديم مما أفزع سكان الحريم. وانتهزت «روكسلانا» الفرصة لكى تنتقل إلى السراي الكبير الذي أصبح منذ عهد «محمد الفاتح» مركزاً للحكومة، وفيه كان ينام «سليمان» حين لا يشعر بالرغبة في زيارة الحريم. وبعد انتقال «روكسلانا» إلى السراي الكبير أمرت ببناء باب بين جناحها الجديد وبين جناح السلطان، وبذلك أصبحا لا يكادان أن يفترقا.

وبدا أنها حققت طموحاتها، ولكن كانت لاتزال تعترضها عقبتان؛ فالأمير مصطفى الذي كان محبوباً من الشعب، بحيث إن إزاحته عن طريق ابنها «سليم» لم تكن بالمهمة السهلة، وبالإضافة إلى هذا فإن «روكسلانا» لم تبد ارتياحاً للسلطة التي كان السلطان منحها لـ «صدره الأعظم» إبراهيم باشا.

وقد أنجبت «روكسلانا» للسلطان الأمراء محمداً وسليماً وبايزيد وجهانكير والأميرة

ميريما (محريمة) وعبدالله. (١)

والخلاصة أن «روكسلانا» امرأة غامضة أغلب الروايات تقول عنها إنها اختُطفت

---

١ - أبناء السلطان سليمان وذريته من زوجاته هم:

- محمود (١٥١٢-١٥٢١): مات وهو طفل.
- الأمير الأمين مصطفى (١٥١٥-١٥٥٣). أكبر أبنائه الذين وصلوا إلى سن البلوغ وولي العهد من ١٥٢١ إلى ١٥٥٣. ولد لسليمان من زوجته الأولى مهدفران واغتيل على طلب من والده في ١٥٥٣.
- الأمير مراد: مات في ١٥٢١ وهو طفل يتعلم المشي.
- محمد (١٥٢١-١٥٤٣): أكبر أبنائه من روكسلانه ووالي مانيسا في ١٥٤٢-١٥٤٣. قبل موته كان يعتبر الوريث الأوفر حظا لخلافة والده.
- الابنة محريمة سلطانة (١٥٢٢-١٥٧٨): كبرى بناته من روكسلانه وتزوجت في ١٥٣٩ رستم باشا، وهو جنرال كرواتي عثماني أصبح صدرًا أعظم مرتين لاحقا (١٥٤٤-١٥٥٣، ١٥٥٥-١٥٦١). كان لها تأثير كبير على السلطة حيث أصبحت السلطانة الوالدة بين ١٥٦٦ و١٥٧٨.
- الأمير عبد الله (١٥٢٢-١٥٢٥): مات وهو طفل.
- الأمير سليم الثاني سارخوش السكير (١٥٢٤-١٥٧٤): ابنه من روكسلانا. بعد اغتيال مصطفى في ١٥٥٣ أصبح ولي العهد وبعد اغتيال بايزيد في ١٥٦١ أصبح الوريث الوحيد. فخلف والده في ١٥٦٦ وتزوج نوربانو سلطان (راكيل ناسي ١٥٢٥-١٥٨٣) في ١٥٤٥. ولد ابنه الأول مراد في ١٥٤٦ الذي بدوره أصبح سلطانا.
- الأمير بايزيد (١٥٢٥-١٥٦١): ابنه من روكسلانه ومنافس سليم الوحيد لخلافة سليمان وعهد له بعدة مناصب قبل ١٥٥٩، عندما هزم على يد سليم ولاذ بالفرار إلى المنفى نحو الحاشية الفارسية. اغتيل بناء على طلب من والده في ١٥٦١ (مع أبنائه الأربعة).
- جيهانكير (١٥٣١-١٥٥٣): ابنه من روكسلانه وهو أحدب ومات من شدة الحزن على مقتل الأمير مصطفى.

وأما زوجات السلطان فهن:

- ماه دوران (ناهد دوران).
- كلفم خاتون: من الجواري ووالدة الأمير مراد.
- روكسلانا.
- بنت عبدالله ووالدة الأمير محمود.

وبيعت للقصر السلطاني العثماني أو أهديت إليه من تتار القرم وقيل إن إبراهيم باشا قد اشتراها وأهداها للسلطان، وقد قيل عنها أيضاً أنها ذات أصول فرنسية وأيضاً إيطالية وبالتالي ليس هناك اتفاقٌ على موطنها الأصلي، إلا أن المشهور عنها أنها من أوكرانيا من بلدة روهاتين ذكر ذلك المؤرخ الفرنسي «اندري كلو» في كتابه «سليمان القانوني» هذا هو الأرجح عندنا لوجود تمثال لها في تلك البلدة حتى الآن، فذكر أنها ابنة كاهن أرثوذكسي فقير من بلدة روهاتين في روتينيا على نهر دنستر وهي جهة الحدود المجرية وملدافيا وبولندا وأن اسمها الأصلي عند الولادة الكسندرا اليزوفسكا وأن التتار القرم كان يقومون بمهاجمة تلك المدن والسطو عليها ونهبها من حين لآخر في بولندا فتم اختطاف روكسلانه وبيعها في أستنبول أو أهدائها للقصر وكانت روكسلانه قصيرة القامة مقبولة الشكل ليست ذات جمال باهر كما وصفها سفير البندقية برافادينو في حينه وإنما كانت تتمتع بذكاء ودهاء لا حدود لهما استطاعت جذب انتباه السلطان إليها بكلامها المعسول.

روكسلانا ملهمة للفنانين عبر العصور

ألهمت روكسلانه (خورم) الرسامين والموسيقيين والأدباء بوصفها بطلة الحب الأسطوري السلطاني ولهذا تجدها تعود بين فترة وأخرى إلى الواجهة من خلال رواية أو لوحة أو موسيقى، تستعيد قصة الحب التي ربطتها بالسلطان سليمان القانوني!

فظهرت روكسلانه في لوحة للفنان «جاكوبو تينتوريتو» والفنان «مليشيور لوريكس».

وهناك لوحات أخرى لروكسلانه (خُرَّم) والسلطان سليمان كما تخيلهما الألماني أنتون هايكل ويضم متحف طوب كابي لوحة أخرى للسلطانة تظهرها في شكل امرأة ذات وجه صغير وعينين سوداوين وثغر صغير وترتدى هوتوز (نوعاً من الرداء) مرصعاً باللآليء والأحجار الكريمة إضافة إلى أقراط أذن هلالية الشكل

أما أشهر الأعمال الفنية هي السيمفونية رقم ٦٣ لهايدين، إذ تعرف باسم "روكسلانا" وهي من وحي حياة السلطانة الشهيرة.

وفي مسلسل حريم السلطان قامت الممثلة التركية الألمانية مريم أرزلي بتجسيد شخصيتها وقد ساهمت روكسلانه في فرض ذوقها في الأزياء على نساء زمانها وأثرت فيهن بتسريحة شعرها وملابسها وحليها، وظهرت في لوحة بريشة الفنان «جاكوبو تينتوريتو» وهي ترتدي قفطاناً حريريًا بأكمام طويلة وياقة عنق مثنية إلى الخلف.

والفنان «ملشيور لوريكسا»* رسم لها لوحة أظهرتها امرأة جميلة ممتلئة قليلاً وهي تحمل زهرة في إحدى يديها وتضع أقراطاً من اللؤلؤ في أذنيها وتضفر شعرها مثل التاج على رأسها.

وفي متحف قصر نوبل بي توجد لوحة أخرى لروكسلانا في شكل امرأة ذات وجه ضامر صغير نحيل وعينين سوداوين واسعتين وترتدي هوتوز مرصعاً باللآلئ والأحجار الكريمة وأقراط أذن هلالية الشكل.



صورة لروكسلانا.



نصب تذكاري لروكسلانا
في مسقط رأسها «روهاتين»
بأوكرانيا.



إحدى اللوحات التي رسمها الفنانون لروكسلانا.



لوحةٌ تصور روكسلانه في متحف قصر توبكابي.

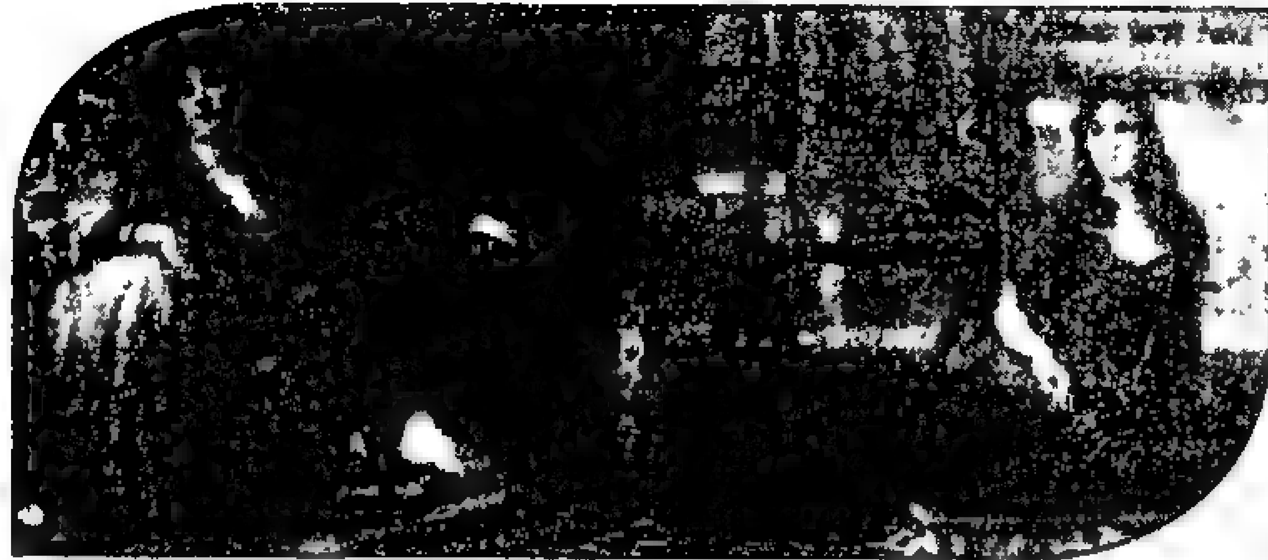


صورة للفنان جاكوبو تينتوريتو» يصور فيها روكسلانه ترتدي قفطاناً حريريًّا بأكمام طويلة.



الحمام التركي الخاص بخُرم سلطان (روكسلانا).









مقارنات بين صور روكسلانه الحقيقية والممثلة التي أدت دورها
في المسلسل التركي "حريم السلطان"



صورة للممثل الذي جسد دور السلطان سليمان على اليمين وعلى اليسار صورة للسلطان سليمان الحقيقي في شبابه.



لوحة الحب الأسطوري

«روكسلانا والسلطان» ألهم الخيال الأوروبي، الصورة بريشة الرسام الألماني أنطون هايكل ١٧٨٠م.



صورة تصور روكسلانه كامرأة في غاية الجمال كما تخيلها أحد الفنانين (ميلشيور لويركس) تضع عقداً من اللؤلؤ وتضفر شعرها وهي صورة من وحي الخيال للفنان.



صورة إعلان مسلسل حريم السلطان.



الممثلة التي جسدت دور «روكسلانا» في مسلسل حريم السلطان.



الممثلة مريم أرزلي التركية الألمانية التي جسدت دور «روكسلانا».



صورة تجمع «روكسلانا» الحقيقية والممثلة التي جسدت دورها.

رسائل الحب بين روكسلانه والسلطان في معرض العشق السلطاني

عرض مؤخراً في معرض في تركيا عام ٢٠١١م سبع رسائل متبادلة بين روكسلانه والسلطان سليمان وقد عرض الأشعار التي كتبها السلطان سليمان والسلطانة هيام لبعضهما أيضاً.

وهي أشعارٌ جميلةٌ يفوح منها عطر الحب، وهي أشعار مأخوذة من كتب التاريخ والتي لا تزال موجودةً حتى اليوم ومعروضةً في تركيا على أنها من الكنوز الأثرية ومن هذه الأشعار والتي كتبتها روكسلانه للسلطان:

- سيدي، إن غيابك عني قد أجج ناراً لا ينطفئ لهيبها. أرحم هذه الروح المعذبة وسارع في الجواب، لأنني قد أجد فيه ما يخفف عني. سيدي، حين تقرأ كلماتي ستتمنى لو أنك كتبت إلى أكثر للتعبير عن شوقك.
- يا سيدى أنت شمسي وسلطانى ومنبع سعادتى، أريد أن أسجد وألثم قدميك بدموعى وقبلاتى .... إن حبي لك جنونى.
- يا سيدى وسلطانى مضى شهر ونصف الشهر دون أن أتلقى أخباراً من سلطانى.... لا أعرف طعم الراحة من دون أن أرى وجهك كل يوم، وأمضي ليلي ونهاري في الندب والبكاء .... لقد أُثقلت على حياتي وضاق العالم في عيني وأنا بعيدة عنك...... إني أترقب رؤيتك بفارغ الصبر.

ومن أهم رسائل العشق التي كتبها السلطان سليمان إلى روكسلانه:

- عرش محرابي الوحيد، ثروتي، حبي، وضياء قمري.
- يا أعز أصدقائي، كاتمة أسراري، وجودي، سلطانتي، وحبي الأول والوحيد.
- يا أجمل الجميلات...
- ياربيعي، حبي المرح، نهاري، قلبي، ورقتي الضاحكة...
- يا حديقتي، زهرتي الحُلوة، الوحيدة التي لا تحمـِّلني هموماً في هذا العالم...
- يا اسطنبولي، قرماني، وأرض أناضولي
- يا بادخشاني، وبغدادي وخراساني
- يا امرأتي ذات الشَّعر الجميل، وحبي للحاجب المعقوص، وحبي للعيون الملآى بالغواية...
- سأنشد مدائحك دوماً
- فأنا، المحب ذو القلب الملوع، محبي ذو العيون الملآى بالدموع، حقًّا سعيد.

وكانت «روكسلانا» بعد أن ضمها السلطان إلى حريمه تقوم بالعزف والغناء له وتبهجه بمرحها وضحكها وبأشعارها وكان السلطان يحب الشعر ويقرضه، فجعلها من المحظيات المقربات إليه وتدرجت في الرتبة من رتبة إقبال لتصل إلى زوجة السلطان في نهاية الأمر.

5

مكائد روكسلانا

- روكسلانا وماه دوران «ناهد دوران».
- محاولة روكسلانه الفاشلة قتل ماه دوران.
- روكسلانا وإبراهيم باشا.
- إبراهيم باشا والسلطان سليمان.
- إبراهيم باشا وخطيب روكسلانه القديم.
- أسباب الحكم بإعدام إبراهيم باشا.
- حديث الذكريات الأخيرة.
- روكسلانه والأمير مصطفى.

روكسلانا وماه دوران «ناهد دوران»

يطيب للبعض القول إن السلطان سليمان تعرف على الجارية روكسلانه وهو في الخمسين من عمره وهي جارية صغيرة السن والسبب في ذلك عدم وضوح التواريخ في الكتب التي تحدثت عن تاريخ تلك الفترة حتى إنني حين كتبتُ كتاباً عن السلطان سليمان القانوني اختلط الأمر لدي وخاصة بعد أن شاهدت مسلسل حريم السلطان الذي أوضح أن السلطان تعرف على روكسلانه كجارية وضمها إلى الحريم وهو في بداية ١٥٢٢م أي بعد تجاوزه لسن الثامنة والعشرين وأن ابنه سليم أنجبه عام ١٥٢٤م، أي في بداية حكمه للدولة العثمانية وقبل معركة موهاكس الشهيرة عام ١٥٢٦م وبعد البحث في كتب التاريخ يتضح لي أن ما جاء في المسلسل في هذا الشأن صحيح على الأرجح.

فالسلطان سليمان ليس كما صوره البعض من أنه تعرف على روكسلانه وهو شيخ كبير وإنما كان شابًا والفارق العمري بينهما ليس بالكبير حيث إنه من مواليد ١٤٩٥م وهي من مواليد ١٥٠٦م.

ولكن هناك من المؤرخين من يقرر أن روكسلانا عاشت مع السلطان كزوجة أكثر من ربع قرن من ١٥٣٠ حتى ١٥٥٨م والثابت أن روكسلانه عاشت ٥٢ سنة ميلادية أي من ١٥٠٦ حتى ١٥٥٨م، ويبقى الخلاف حول بداية تعرفها ومعرفتها بالسلطان سليمان وتاريخ ميلاد ابنها الأكبر محمد والابن الآخر سليم، هل كان ذلك قبل موقعة موهاكس أم بعدها؟!

وقد ذكر الأستاذ/ محمد فريد بك المحامي في كتابه تاريخ الدولة العلية العثمانية أن السلطان سليمان أنجب ابنه سليماً في ٢٨ مايو ١٥٢٤ميلادية الموافق ٦ رجب ٩٣٠ هجرية، وذكر أن السلطان سليمان ولد عام ٩٠٠ هـ الموافق ١٤٩٥م. أي أن سليمان كان عمره ثلاثين عاماً حين أنجب ابنه سليماً أي قبل موقعة موهاكس، و من الثابت أن سليماً الذي أصبح السلطان سليماً الثاني قد مات عن عمر يناهز اثنين وخمسين عاماً بالتاريخ الهجري حيث توفي عام ٩٨٢هـ الموافق ١٥٧٤م ومدة حكمه ثماني سنين وخمسة أشهر.

المهم وبعيداً عن التواريخ فإن روكسلانه حين دخلت القصر السلطاني بذلت جهود كبيرة لتمحو أي عاطفة من السلطان تجاه زوجته الأولى «ماه دوران» (ناهد دوران) أو جلبهار وكذلك زوجاته الأخريات حيث إنه كان متزوجاً بأربع وكانت روكسلانه تستعين مثل غيرها من النساء بالعرافين والسحرة في زمانها.

وكانت الزوجة الأولى للسلطان ماه دوران تغار على زوجها السلطان كما ذكرنا واشتدت غيرتها أكثر حين التحقت روكسلانه بحريم القصر وأصبحت المحظية الأولى للسلطان وموضع اهتمامه واستمرت المناوشات بينها وبين روكسلانه وخاصة بعد أن أنجبت له أولاداً ذكوراً.

واستخدمت كل وسيلة لتحقيق هذه الغاية، فكانت غالبا ما تلجأ إلى استخدام المكر والدهاء، وفي بعض الأحيان، لم تكن تجد أي ضير في أن تجاهر بغيرتها وتطلق العنان لغضبها.

وكتب المؤرخ الفينيسي (الجنوبي) (بيتر وبرانغادينو)، أن (روكسلانا) كانت تفتعل مشاجرات مع خليلات السلطان الأخريات، وتمكنت في النهاية من القضاء على منافساتها، والاستئثار بحب السلطان، ورفضت أن تبقى مجرد جارية محظية وأصرَّت على أن تصبح زوجة شرعية وامرأة حرة.

وبالفعل، كان لها ما أرادت، ففي عام ١٥٣٠، تزوجها السلطان، الأمر الذي أكسبها لقب (سلطانة)، وهو لقب كان محصورا فقط ببنات السلطان، وأصبحت بذلك أول

سلطانة تعرفها الإمبراطورية العثمانية، من سلالة غير ملكية.

كتب السفير النمساوي (غيزلان دوبوسبك)، الذي خدم في تركيا بين ١٥٥٥م و١٥٦٢م، في مذكراته يقول: (حصل سليمان على بضعة أبناء آخرين من (روكسلانا) (السلطانة خوريم) الذي دفعه حبه لها إلى منحها موقع الزوجة الشرعية وتخصيص (مهر) من أجلها. ومعروف أن تخصيص المهر هو الأسلوب الأضمن لإعلان الزواج الشرعي عند الأتراك وبهذه الطريقة، سجل (سليمان) سابقة، وخرج على التقاليد والعادات التي كانت معتمدة لدى من سبقه من السلاطين).

وكتب الديبلوماسي النمساوي (هانز ديرنشاوم)، وكان أمضى بعض الوقت في اسطنبول عام ١٥٥٥م في مذكراته، إن سليمان وقع في حب تلك الفتاة المجهولة العائلة، والتي يغلب الظن بأنها من أصل روسي، فأعتقها وتزوجها وسمح لها بالانتقال للعيش معه في نفس القصر.

وذكر (ديرنشاوم) إلى أن جميع طلبات (خوريم) كانت مجابة من دون قيد أو شرط، وكانت هي التي طلبت أن يتم نقل مقر الحريم الإمبراطوري من قصر (بيازيد) القديم، إلى قصر (توبكابي)، لتكون على مقربة من سليمان.

ويقول: كان نفوذها على السلطان عظيما لدرجة دفعت البعض إلى التكهن بأنها ربما تكون سيطرت عليه بفعل (السحر)! لكن من المهم، وفي جميع الأحوال، أن نعرف بأن (خوريم) حققت غاياتها وأهدافها بفضل الذكاء والطموح والحب وتبادل الخطابات والأشعار!.

فقد أعلن (سليمان) و(روكسلانا) حبهما، الواحد للآخر، عبر القصائد الشعرية والرسائل أيضا، وغالبا ما كان يخاطبها على أنها المليكة والحبيبة والقمر المتلألئ ورفيقة الدرب الطويل وكل شيء...

ولم يكن لينسَى أن يناديها بـ (السلطانة)، وفي إحدى رسائلها إلى (سليمان)، كتبت (خوريم) تقول: (يا سيدي ويا سلطاني، مر شهر ونصف الشهر من دون أن أتلقى

أخبارا من سلطاني.. لا أعرف طعم الراحة من دون ان أرى وجهك كل يوم، وأمضي ليلي ونهاري في الندب والبكاء.. لقد أثقلت علي حياتي وضاق العالم في عيني وأنا بعيدة عنك.. إني أترقب رؤيتك بفارغ الصبر..).

وفي رسالة أخرى، كتبت له تقول: (يا سيدي، أنت شمسي وسلطاني ومنبع سعادتي، أريد ان أسجد وألثم قدميك بدموعي وقبلاتي.. إن حبي لك جنوني...).

كان المبعوثون الأجانب إلى إسطنبول كانوا يحملون الهدايا النفيسة إلى السلطانة (روكسلانا).

ومن جهتها، ارتبطت (خوريم)، عن طريق المراسلة، بعلاقات صداقة مع عدة ملكات في العالم، ومع شقيقات الشاه الإيراني، ملك بلاد فارس آنذاك. وأنه عندما لجأ الأمير الفارسي (إلكاس ميرزا) إلى البلاط العثماني، عاملته بكل الحنو والعطف الذي تعطيه أم لولدها، وخاطت له بنفسها قيمصا حريريا وثوبا مطرزا بالذهب.

وكانت روكسلانه جارية جريئة، لا تتورع عن فعل الغريب والمخالف، ولقد كانت تضحك دوماً. كانت تضحك حين ترقص، وتضحك حين تغني. تضحك حين تُعنَّف، وتضحك حين تتحدث.

وكان سليمان معتادا على سلوك واحد من حريم القصر أساسه الخضوع والتسليم، ووجد في سلوك هذه الجارية شيئا جديدا مبهجا وعندما استدعاها أول مرة، أخبرها أن اسمها خُرم ثقيل الجرس، وأنه قرر أن يدعوها روكسلانا، نسبة إلى بلدها البعيد.

عندما طلب منها أن تغنيه واحدا من ألحان تلك البلاد الباردة، تناولت آلتها الموسيقية، ثم ضربت عليها إيقاعا حزينا جعل الجليد يذوب في قلبه ومنذ ذلك الوقت والسلطان لا يريد إلا روكسلانه ويؤثرها لكل أوقات راحته ولهوه.

كان لمثل هذا الإيثار أن يقلق ناهد دوران، وخصوصا بعد أن أنجبت غريمتها روكسلانه ولدين ذكرين من السلطان، ولكن تبقى ناهد والدة مصطفى، الابن البكر لسليمان، والرجل الذي يُنتظَر أن يخلف أباه على عرش السلطنة العثمانية، ولا سيما بعد

أن عينه السلطان وليًّا للعهد، لكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن.

بينما ناهد دوران أو «جُلبهار» تسير في أرجاء السراي بخطواتها الواثقة وقامتها الفارعة حينما بصرت بروكسلانا وهي تتبختر في ثوبها الغلامي الشفيف. فزمّت جُلبهار شفتيها وتطلعت بازدراء إليها ولم تتمالك نفسها وقالت لمن معها من جواريها:

- تطلعوا! تنجب ولدين من السلطان ولا تزال ترتدي ثياب المحظيات.

كان صوتها يمكن لمن أراد سماعه تفسيره وهذا ما جعل روكسلانه تفسره جيداً وهذا وتغضب وترد عليها:

- كم أكره التصنّع والكذب؛ لا يمنعكِ عن لبس هذا إلا أنكِ عجوز طاعنة!!

وفي الحال هجمت «ماه دوران» على روكسلانه دون إرادة ولا شعور لتجد نفسها قد أوسعتها ضرباً.

في المساء، عندما أرسل السلطان يستدعي روكسلانا، أجابت الأخيرة أنها لا تستطيع أن تمثل بين يدي السلطان بقلب كسير ووجه ممزق، سارع السلطان نحو غرفتها، وعندما أبصر وجهها استشاط غضبا، وأنصت إلى روكسلانه وهي تروي القصة بصوت باكٍ وعيون دامعة. لم ينبس ببنتِ شفة طوال حديثها وعندما فرغت، نهض من مكانه، وغادر الغرفة، وأمر باستدعاء مصطفى إلى الديوان وعندما مثل ابنه بين يديه، أخبره أنه سيرسله كي يحكم «مغنيسيا» كما فعل السلطان في شبابه وأضاف و كما لو أنه أمر عابر. إن والدته سوف تصحبه إلى هناك، ولذا فالأحرى به أن يخبرها.

وهكذا استطاعت روكسلانه إبعاد غريمتها وضرتها عن القصر بأقل الخسائر وبكيد النساء وأدى ذلك أيضاً إلى انقسام خاصة السلطان إلى معسكرين يتحلقان حول هاتين المرأتين: الأول يضم جُلبهار وابنها مصطفى والوزير الأعظم إبراهيم باشا، والثاني يضم روكسلانه وأولادها وجواريها.

ولم تقف مكائدها عند حد معين بل تفاقم نفوذها حتى حققت ما تصبو إليه، وتخلصت من كل أعدائها.

محاولة روكسلانه الفاشلة
قتل ماه دوران

أدركت روكسلانه أن السبيل للسيطرة على قلب وعقل السلطان يبدأ بالتخلص من غريمتها ماه دوران «ناهد دوران» كما أشارت عليها وصيفتها «فريال» وانتظرت الفرصة لذلك وكان أسهل طريقة هي دس السم في الطعام.

وفي أحد الأيام طلبت السلطانة ناهد دوران حلوى «المهلبية» من المطبخ الرئيسي في القصر، فاستغلت ذلك وأرسلت إحدى جواريها لوضع السم في المهلبية، تولت نقل المهلبية من المطبخ إلى جناح السلطانة جارية اسمها روزا، تناولت السلطانة لقمة فأحست بألم في معدتها وتم استدعاء طبيبة القصر التي أنقذت السلطانة بأن تجعلها تستفرغ كل ما أكلته وأعطتها دواءً مضاداً للسموم، فاستطاعت أن تنجوَ من الموت المحقق.

وكالعادة في القصر السلطاني في مثل تلك الحوادث جرى التحقيق في الحرملك عن من وضع السم في أكل السلطانة وتم العثور على جثة الجارية «روزا» مخنوقة حيث تم التخلص منها حتى لا يشير أي دليل على تورط روكسلانه «هويام» في تلك الجريمة.

لم تستطع وصيفة ناهد دوران «كوثر» أن تتحمل ما لحق بمولاتها، فذهبت إلى جناح هيام ووجهت لها عدة طعنات بخنجرها لكن تم إنقاذها من قبل وصيفاتها حيث تلقت وصيفتها طعنة مميتة في صدرها، تم القبض على «كوثر» ومحاكمتها في محكمة الحرملك، ثم أصدر قرار بإعدامها على الفور.

ذهبت إليها ناهد دوران كي تودعها فلما دخلت عليها في سجنها قالت: يا كوثر لِمَ فعلت ذلك؟

ردت عليها: لم أتحمل أن أراكِ تعيسة يا سلطانتي، وكنت متأكده أنها ستحاول أن تؤذيكِ مرة أخرى.

فقالت لها بحزن شديد: لكنهم سيقتلونكِ ولن أتحمل ألم فراقك.

كوثر: سلطانتي، لا تقلقي كثيراً بشأني، لقد كنت طوال عمري أفكر كيف أرد جميلك عليَّ، ولم أجد طريقة إلا التخلص من عدوتك التي حرصت جاهدة على التخلص منك.

ثم أردفت: أرجوك يا مولاتي اعتني بنفسك وبمولاي مصطفى، ولا تفكري بي.

عانقت السلطانة وصيفتها وودعتها قبل إرسالها إلى تنفيذ الحكم فيها بالموت خنقاً.

وفي يوم تنفيذ الحكم التقت روكسلانه بكوثر وقالت: اليوم أنت يا كوثر وغداً مولاتك وردة الربيع «ناهد دوران».

فقالت لها كوثر: لمولاتي السلطانة الكثير من الأتباع غير كوثر لن يضيرها أن تفقد واحدة منهم، وإن كان وراءك كبيرة الحرملك، فوراء السلطانة إبراهيم باشا.

تم إعدام كوثر في ذلك اليوم، وأقسمت السلطانة ناهد دوران أن تنتقم لها.

في حين أرسلت روكسلانه إلى إبراهيم باشا تدعوه إلى نصرتها والوقوف معها فقالت: لماذا يا باشا تساند شمساً على وشك الغروب وتترك شمساً تشرق؟!

فرد عليها: إن في رقبتي بيعة لمولاي ولي العهد الأمير مصطفى وقد أقسمت على الولاء له ولوالدته حتى لو تطلب ذلك أن أضحي بحياتي.

وكان هذا الرد حاسماً بالنسبة لها وكأنه قد أحلها من وعدها له بعدم التعرض له.

روكسلانا وإبراهيم باشا

لم تتوقف مكائد روكسلانه عند حد معين أو أشخاص محددين، ففي طريق وصولها إلى قلب السلطان أزاحت كل امرأة من طريقه استطاعت إزاحتها سواء زوجاته أو محظياته، ومن أجل الوصول إلى منصب السلطانة الوالدة الحاكمة في القصر وخاصة في جناح الحريم السلطاني كان عليها إزاحة السلطانة الأم أو الوصول إلى هذا المنصب في المستقبل القريب عن طريق أحد أبنائها وهذا يتطلب إزاحة ولي العهد الأمير مصطفى ابن ضرتها وغريمتها السلطانة ماه دوران «جلبهار» فحاولت قتله بالسم عن طريق إحدى جواريها ولكن المحاولة لم تنجح.

ولكن محاولات الاقتراب من الأمير مصطفى بعد إرساله وأمه إلى ولاية «مغيسيا» كان صعباً وخاصة مع وجود الصدر الأعظم إبراهيم باشا مسانداً له.

فكان لازماً عليها التخلص أولاً من إبراهيم باشا الذي بدأ نجمه في العلو والارتفاع في الدولة.

وكانت السلطانة الأم عائشة حفصة أيضاً عقبة أمام طموحاتها ومكائدها بقدر الإمكان حيث كانت تتدخل للتهدئة بين الزوجتين المتصارعتين على قلب السلطان وأيضاً كان مساندة لإبراهيم باشا، ولكن وفاة السلطانة الأم عام ١٥٣٥م فتح الباب لمرور مكائد روكسلانه من أجل القضاء على إبراهيم باشا سهلاً وميسوراً.

لم يكن من السهل القضاء على إبراهيم باشا بعد أن أصبح قوة سياسية في الدولة العسكرية، وقد تعددت الروايات والأسباب التي دعت السلطان سليمان لاتخاذ قرار إعدامه خنقاً وأصابع الاتهام تشير إلى روكسلانه كما ذكرنا كي تفسح الطريق أمام ابنها سليم لتولي منصب ولي العهد، وهذا ما انتهى به الحال بعد مقتل إبراهيم باشا حيث تم إعدام الامير مصطفى وتعيين الأمير سليم مكانه سنة ١٥٥٣م وقد تم إعدام إبراهيم باشا سنة ١٥٣٦م.

ووفقاً للروايات التاريخية فإن روكسلانه قد سعت لتقويض ثقة السلطان بوزيره الأول وصديقه وزوج أخته إبراهيم باشا بسبب دعم إبراهيم باشا لولي العهد الأمير مصطفى الابن الأكبر للسلطان من زوجته الأولى غريمتها «ماه دوران» حتى تستطيع تدبير القضاء على ولي العهد بعد ذلك.

وقد أظهرت روكسلانه عداءها لإبراهيم باشا وإصرارها على أنه أصبح خطراً ومتآمراً على السلطان حتى أنها كتبت للسلطان رسالة تقول فيها: «حين أقرأ رسالتك يكون ابنك محمد وابنتك «مهرماه» حولي يبكيان بدموع لا تنقطع إن رؤية دموعهما تجعلني أجن .. تسألني عن السبب في غضبي على إبراهيم باشا وحين يجمعنا الله ثانية سأذكر لك السب وستفهمني».

فمن هو إبراهيم باشا؟

ولد إبراهيم باشا لأسرة مسيحية عام ١٤٩٤م قرب مدينة بارغا على الساحل اليوناني وكان والده صياد سمك، وتم اختطافه وإبعاده عن أسرته سواء باختيار الأسرة أو غصباً عنها بواسطة القراصنة في ذلك الزمان أو بنظام الدوشيرمة الذي يقضي بجمع أبناء الأسر المسيحية لتربيتهم في القصور العثمانية لتكوين جيش الانكشارية[١] ويقال إنه بيع لأرملة في «ماغيسيا» أحسنت تربيته وتعلم لديها العزف على آلة الكمان قبل أن

١ - اقرأ كتابنا «الدولة العثمانية من الإمارة إلى الخلافة» ففيه المزيد عن تلك الدولة العظمى التي حكمت العالم الإسلامي والعربي أكثر من ستمائة سنة، الناشر دار الكتاب العربي.

يتم ترحيله إلى الأناضول حيث تلقى تعليمه على يد العثمانيين وألحقه بخدمة سليمان بن السلطان سليم الأول.

وكان قرب إبراهيم الذي عرف بإبراهيم الفرنجي أو البرتغالي من الأمير سليمان بن السلطان سليم الأول أن المعلمين العثمانيين قد لاحظوا فطنته وذكاءه إضافة إلى وسامته فجعلوه رفيقاً لابن السلطان وولي العهد الذي اتخذه صديقاً وتلقى معه العلوم الذي تعلمها الأمير مما حدا بإبراهيم أن يتعلم اللغات المختلفة والثقافة الموسوعية وعلوم السياسة والحكم.

عُرف إبراهيم باشا بإبراهيم الفرنجي نسبة إلى أصوله غير العثمانية حيث مولده ونشأته الأولى في اليونان، وفي تركيا والغرب عرف باسم إبراهيم باشا البارغالي إشارة إلى البلدة التي ولد فيها «بارغا»، ثم عرف بلقب آخر حازه بعد مقتله وهو إبراهيم المقتول؛ وقد حمل إبراهيم باشا لقب «داما» بعد زواجه من السلطانة خديجة شقيقة السلطان سليمان وهو لقب يمنح لصهر السلطان وبذلك يصبح واحداً من ثلاثة صدور عظام في التاريخ العثماني يحملون اسم: «داما إبراهيم باشا».

إبراهيم باشا والسلطان سليمان

تربى إبراهيم باشا مع السلطان سليمان الأول كما ذكرنا فصار صديقه الحميم وبارتقاء سليمان سدة الحكم بعد وفاة أبيه السلطان سليم الأول عام ١٥٢٠م صعد معه صديقه إبراهيم فصار رئيساً للغرفة الخاصة بالسلطان سليمان وحمل لقب «خاص أوده باشى» مما جعله لا يفارق السلطان أبداً.

ثم عينه السلطان في منصب الصدر الأعظم مما أثار حقد البعض من موظفي القصر السلطاني الذين كانوا يطمعون في هذا المنصب منهم أحمد باشا الذي عينه السلطان والياً على مصر ولكنه تمرد واستقل بمصر عن الدولة العثمانية.[1]

حيث قضى على تمرده بواسطة إبراهيم باشا الذي ظل بمصر والياً عليها ليضع قوانين جديدة ونظمها على النمط العثماني وعمل إصلاحات إدارية معمارية فيها خلال الفترة من سبتمبر ١٥٢٥ حتى سبتمبر ١٥٢٥م.

وشارك إبراهيم باشا السلطان سليمان في غزواته وفتوحاته وأبلى فيها بلاءً حسناً وشارك في انتصارات الجيوش العثمانية وقاد حملات عسكرية بمفرده وأصبح نفوذ إبراهيم باشا يقارب سلطة سيده السلطان سليمان، حتى إنه كان صمام الأمان للسلطان من القرارات الغاضبة كما حدث حين أمر بقتل أهالي حلب عقاباً لهم على ثورتهم ضد

١ - اقرأ كتابنا السلطان سليمان القانوني، الناشر دار الكتاب العربي.

الحكم العثماني فساهم إبراهيم باشا في إلغاء هذا الأمر السلطاني واكتفى السلطان بقتل زعماء الثورة.

وساهم إبراهيم باشا في تحسين العلاقات الدبلوماسية مع الدول الغربية حتى أطلقوا عليه لقب «إبراهيم العظيم» كما أطلقوا على السلطان «سليمان العظيم».

وكان إبراهيم باشا قائدا عسكريا بارعا وكان له الفضل الأكبر في انتصارات العثمانيين إبان حكم سليمان القانوني فأثناء التجهيز لفتح بلجراد نصح إبراهيم باشا السلطان أن ينقل الجيش ومعداته عن طريق نهر طونا (الدانوب حاليا) بدلا من الطريق البرى حتى لايضطر لدخول الغابات التي يستطيع فيها المجريون القضاء على الجيش العثمانى بسهولة، ونجحت الخطة وفوجئ المجريون بالجيش العثمانى وقد أصبح على أبواب بلجراد.

ويعتبر إبراهيم باشا مخطط معركة موهاكس التي اكتسح فيها الجيش العثمانى الجيش المجرى في ساعة ونصف فقط ومن ثم فتح بوداب (بودابست الآن).

ونصح السلطان في فتح فيينا بأن يقوم أولا ببناء مخازن ومستودعات للذخيرة والطعام بطول الطريق نظرا لبعد المسافة، كما نصحه بأن يبدأ هجومه في نهاية فصل الشتاء حتى يبدأ الحصار في منتصف الربيع حتى يتمكن من فتحها قبل أن يطول الحصار للشتاء، ولم يلتزم السلطان بنصائحه ولذلك لم يتمكن من فتحها.

وقام إبراهيم باشا بقمع تمرد قلندر جلبى في مرعش وأحمد باشا الخائن في مصر، كما قاد الجيش في الحملة ضد الدولة الصفوية وحقق نجاحا واضحا حيث استطاع دخول تبريز عاصمة الشاه واحتلال قلعة وان المنيعة وفتح مدينة أريوان واستكمل مع السلطان الفتح بعد ذلك حتى دخل بغداد.

وقد قام سليمان بفتح حوالى ٣٦٠ قلعة قام إبراهيم وحده بفتح نصفها مما يجعله كأكبر قائد عسكري مسلم من حيث عدد فتوحاته، كما أن إبراهيم شارك السلطان في فتحه لعدة قلاع أخرى، وقد ظل في منصب الصدر الأعظم ثلاثة عشر عاماً.

لكن إبراهيم باشا قد اتُّهم بعدة اتهامات منها أنه كان في باكورة الصدور العظام الذين

قبلوا الرشاوى كوسيلة لتولي المناصب العليا في الدولة.

وهو اتهام باطل لايصح لأسباب ذكرها المؤرخون المعاصرون منها أن السلطان ترك له أمور الديوان بيده، فلم يعد السلطان يلتزم بحضور الجلسات، وتلك ثقة من السلطان به.

وكذلك تقديم السلطان له على كافة رجال الدولة وجعله قائدا للجيش بجانب منصبه كصدر أعظم وكذلك استمرار السلطان في ترقيته ومكافأته على كفاءته في إدارة البلاد وبالتالي فإن ارتفاع راتبه كان كفيلاً بإبعاد نظره عن المال مع الرفاهية التي كان يعيش فيها.

وأيضاً زواجه من السلطانة خديجة أخت السلطان والتي كان معروفا عنها التزامها الدينى مما يجعل من الصعب قبول فكرة تغاضى السلطانة عن كون زوجها مرتشيا.

كما يُتهم إبراهيم باشا بالطمع في العرش العثمانى؛ حيث يذكر المؤرخون أنه خلال حفلة للسفراء الجدد عام ١٥٣١ قال: «نعم، أنا الذى بيده تصريف كل أمور الدولة، لا يوجد على الأراضى العثمانية شخص يستطيع اتخاذ القرارات غيرى، حتى السلطان لا يتخذ أمراً دون موافقتى عليه».

كما يشتهر أن الباشا قد وقع قرارات باسم (سر عسكر سلطان) خلال الحملة الصفوية وهو تجاوز على حق السلطان.

وربما كان قصده أنه صاحب التدبير في هذه الدولة بعد السلطان ربما لتوضيح مكانته للسفراء، أما عن القرار فربما اضطر إبراهيم إلى اتخاذه قبل مشاورة السلطان لضيق الوقت حيث سيضطر لإرسال رسالة للسلطان في إسطنبول قد تأخذ حوالى ٤٥ يوماً حتى يأتيه الرد، حماية للقوات واضطلاعا منه بمهمته في الحفاظ على جنوده اضطر إلى ذلك وهو ما تم تفسيره خطأً من جانب السلطانة روكسلانه والتي كانت تحرض السلطان عليه، واتخذت تلك الواقعة لتأليب السلطان عليه، حتى جعلت السلطان يخشى من غدر صديقه القديم.

إبراهيم باشا وخطيب روكسلانه القديم

لم تنس روكسلانه ما فعله إبراهيم باشا معها ومع خطيبها القديم «ليو»، فقد كان لها خطيب اسمه «ليو» في بلدتها بأوكرانيا قبل اختطافها ودخولها حريم السلطان سليمان، ظل هذا الحبيب القديم يبحث عنها وساعدته مهنته كرسام في دخول القصر السلطاني العثماني وهو لا يعلم أن حبيبته وخطيبته القديمة فيه، ثم حدث أن جاءه الأمر برسم لوحة لها فرآها وعرفها، وحاولت التخلص منه إلا أن حبه له جعله يحاول استعادتها حتى علم بذلك إبراهيم باشا.

فأراد إبراهيم باشا أن ينصب فخًّا لهما، فوزع جنوده على قصور الحرملك مترقباً لتحركات الحبيب «ليو» الذي قام بإرسال رسالة إلى حبيبته روكسلانه والتي لم ترد عليه، فأرسل لها رسالة أخرى وحاول دخول الحرملك وبالفعل وصل «ليو» بعد منتصف الليل وتم القبض عليه من قبل جنود إبراهيم باشا وتم نقله إلى قبو قصره حيث تم حبسه هناك لأخذ الاعترافات منه. (١)

أدرك «ليو» أنه سقط في الفخ وأن نهايته الموت فأراد أن يفدي حبيبته القديمة وإن كانت قد أظهرت له عدم تجاوبها معه.

١ – حاول «ليو» التواصل مع روكسلانه بعد أن علم أنها جارية السلطان وتقيم في الحرملك فأرسل لها رسالة سرية عن طريق أحد الحراس ليوصلها إلى وصيفتها فريال كي توصلها بدورها لروكسلانه ولكن الرسالة وقعت في أيدي رجال إبراهيم باشا وعلم بالأمر.

وفي الصباح دخل عليه إبراهيم باشا وقال: أهلاً بالعاشق الولهان كنت أنتظر أن أقابل شخصاً مثلك منذ زمن طويل.. اسمع يا عزيزي أنا لا أحب أن أؤذيك، لكن ذلك يعتمد على قولك الحقيقة، قل لي ما علاقتك بروكسلانه جارية السلطان المفضلة.

حكى له «ليو» القصة كلها منذ أن جمع الحب بينهما منذ أن كانا صغاراً في القرية في أوكرانيا وكيف تمت خطوبتهما وبدآ التجهيز للزفاف، وعندما سافر لموسكو لشراء الأثاث، هاجمت قوات المغول والتتار قريتهما وقتلت أهله وأهلها، وتم اختطاف روكسلانه وبيعها كجارية ثم كيف جمع المال وبحث عنها من مكان لمكان حتى وجدها في القصر السلطاني في مصادفة.

استمع إبراهيم باشا لما قاله «ليو» باهتمام وشغف حتى أنه تعاطف معه ورأى أنها فرصة للقضاء على روكسلانه التي أظهرت عداوة له بعد تمكنها من السلطان وقد أنجبت له الولد وملكت قلبه وأصبحت تكيد المكائد له بسبب وقوفه مع ضرتها وابنها الأمير مصطفى وكذلك انحيازه ودعم السلطانة الأم (عائشة) له.

بقي «ليو» في قصر إبراهيم حتى سافر السلطان سليمان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ورأى إبراهيم أن تلك فرصة سانحة بعد أن تقلد مقاليد الأمور في عاصمة الخلافة في غياب السلطان، عندها أمر باستدعاء روكسلانه لأمر مهم وعاجل وبالفعل جاءت «روكسلانه» إلى قصر الحكم، فقالت: أخيراً يا إبراهيم قررت أن تدخل في خدمتي بدلاً من السلطانة العجوز (تقصد السلطانة الأم عائشة).

نظر إليها إبراهيم باشا بغرور وقال لها:

لا تحلمي بذلك يا جاريه، لكني جئت بمفاجئة جميلة ستثير إعجابك.

ثم أخرج لها رسالة «ليو» لها والتي وقعت بيده وجاء فيها «روكسي حياتي ونور قلبي طوال تلك السنين التي أبعدتني عنك، كنت كالميت جسداً بلا روح وبقيت من ذلك الوقت أبحث عنك حتى وجدتك ... «حبيبك «ليو».

ثم أمر بجلب «ليو» من محبسه، عندما رأته روكسلانه بدأت في البكاء فقد تذكرت

بلدها وأهلها والأيام القديمة، وعادت بها ذاكرتها إلى مشاهد مقتل أسرتها أمام عينيها وقطع شريط ذكرياتها صوت إبراهيم باشا لها:

استريحي فكما ترين أنا رجل طيب يقدس الحب والجمع بين العشاق والمحبين، وقد حكا لي حبيبك قصة حبكما، وتعاطفت مع هذه القصة والحب الكبير.

نظرت إليه نظرة ثاقبة واثقة: كم أنت حقير يا باشا؟

رد عليها إبراهيم وكأنه لم يسمع إهانتها له:

أنصحك أن تختاري ألفاظك بعناية، لأن حياتك الآن بين يدي، لأن مولاي السلطان وبقليل من التحريض سيكون سعيداً جدًّا بهذا الحب الجميل، سعيداً لدرجة أن تشنقي أنت وحبيبك وتدفنا في قبر واحد..

تدخل العاشق «ليو» في الحديث الساخن كي يضفي عليه برودة وسلاماً فقال:

أرجوك يا باشا، إن كنت ستقتل أحداً أقتلني أنا، ولا تؤذي روكسي.

نظر إبراهيم باشا إلى روكسلانه وقال لها بجدية:

اسمعي ياهيام، سأعرض عليكِ عرضاً، ستكتبين طلباً لمولاي السلطان تطلبين منه أن يعتقَك ويسمح لك بالعودة إلى بلادك، وعندما تأتي الموافقة سأعيدك أنت وحبيب القلب في أحد سفني ومعكم ما يكفي حتى أحفادكم من المال، مقابل أن تريحي السلطانة ناهد دوران من شرك ولا تعودي إلى هنا أبداً، ماذا قلت..؟ (١)

قالت روكسلانه له بحسم:

لن أرضى بذلك أبداً..

قال إبراهيم: إذن فقد بلغتِ حتفك يا هيام

ونادى بقوة وبصوت عالٍ:

يا حراس، ألقوا بها وبحبيبها في القبو.

---

١ - قال «ليو» في الرسالة: «يا مليكة قلبي أتمنى أن تطلبي من السلطان أن يحررك لتعودي معي إلى بلادنا ونتزوج، بانتظار ردك على أحر من الجمر» المرسل: حبيبك «ليو».

قالت له روكسلانه والحرس يأخذونها للقبو: ستندم يا باشا.

وطوال الليل أخذ إبراهيم باشا يفكر، فإذا فضح الأمر سيتم إعدام الاثنين، وقد كان يرى «ليو» شابًّا بريئاً لا ذنب له بكل ما تسببت به هيام من مؤامرات في القصر، وفي النفس الوقت فإنه سيعرض سمعة محمد بن السلطان لأن هيام هي والدته.

ولكنه في نفس الوقت خشي على السلطانة وعلى ابنها ولي العهد من مؤامرات روكسلانه التي قد لا يسلم منها هو نفسه.

وفي القبو كان هناك حديث آخر، فقد اقترب «ليو» من روكسلانه وقال لها: حبيبتي روكسي.

ولكنها بادرته بكف على وجهه وقالت: أيها الأحمق الغبي بسبب رسالتك التافهة جعلت مصيري في يد هذا الطاووس إبراهيم باشا.

أفاق «ليو» على الحقيقة وأدرك أن حبيبته القديمة لم يعد لها وجود وأن روكسلانه التي معه في القبو ليست هي وإنما إنسانة أخرى لا قلب بها.

قرر إبراهيم باشا التستر على الأمر احتراماً للسلطان وابنه، وحتى لا يكون هو والزمن على هذا العاشق التعيس البائس..

أما إبراهيم باشا وبعد تفكير طويل ومستمر استقر رأيه إلى التستر على الأمر حفاظاً على سمعة أولاد السلطان من الجارية روكسلانه وبعدما رأى لأول مرة ترتجف روكسلانه منَ الخوف وتطلب السماح من إبراهيم باشا..

قال لها: لا تخافي لن أؤذيك، كل ما أريده منك أن تكفي عن مكائدك ولا تفكري في إيذاء مولاتي السلطانة الأم ولا غريمتك ناهد دوران، سأعقد هدنة معكِ لا يتعدى أحدٌ منا على الآخر، ولكني أحذرك في المرة القادمة لن أتعامل معكِ بهذا اللطف..

وافقت روكسلانه على تلك الصفقة بصمتها.

جهز إبراهيم سفينة فيها الأموال والمؤن لسفر «ليو» إلى بلاده، ولكنه طلب أن يودع حبيبته في قصر إبراهيم قبل سفره..

ولم يدرك إبراهيم باشا أنه أضاع فرصة عمره التي واتته وأنه بغروره وتسامحه وحرصه على مصلحة السلطان وأولاده قضى على حياته لأن روكسلانه عادت للكيد له حتى تخلصت منه فيما بعد.

قالت له: لقد افترقت طرقنا منذ ذاك الزمان، لا أظنها ستلتقي، وأنت تحمل امتناني على كل ما تحملته من أجلي، لا تراني أرى وجهك بعد اليوم.

انتهى الأمر عند هذا الحد وسافر الحبيب القديم فقد أدرك أن حبه لروكسلانه كان من طرف واحد وأنها قد أدركت أن هدفها ومصلحتها في البقاء بجوار السلطان وأنها ليست كما ظن هو عاشقة له وإنما عاشقة لنفسها وطموحتها، فركب السفينة للسفر إلى موطنه محملاً بهدايا إبراهيم باشا.

واستمرت الهدنة بين إبراهيم باشا وروكسلانه سنوات قليلة كانت روكسلانه توجه سهام مؤامراتها لغريمها وضرتها حتى ينسى إبراهيم باشا ما حدث ثم تعود إلى الكيد له مرة أخرى وهذا ما حدث بالفعل وانتهى بمقتله.

أسباب الحكم بإعدام إبراهيم باشا

يرى المؤرخون أن إبراهيم باشا راح ضحية مؤامرات كانت تدبرها له روكسلانه صاحبة المؤامرات والمكائد في القصر السلطاني كما ذكرنا، إلا أن القارئ لأحداث تلك الفترة يرى أن هناك أسباباً كثيرة متعددة أدت إلى تلك النهاية الأليمة لإبراهيم باشا من أهمها كراهية روكسلانه له وطمعها أن يكون أحد أبنائها وليًّا للعهد بدلاً من الأمير مصطفى الذي كان يسانده إبراهيم باشا.

لم يكن قرار إعدام إبراهيم باشا على نفس السلطان سليمان سهلاً، فقد استعرض سليمان شريط حياته مع إبراهيم باشا منذ الصبا، فهو رفيق عمره وفي نفس عمره وكان نعم الصديق والمعين له منذ توليه أمور السلطنة العثمانية.

لكن الصراع على السلطة والخوف من ضياع الملك وكثرة الشبهات التي دارت حول إبراهيم باشا حتى التفت حول عنقه فجعلت السلطان يصدر أوامره بإعدامه خنقاً بواسطة فرقة الإعدام السلطانية بالحبال وهم جماعة من الحرس الخرس.

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقولون ما ذكرنا من قيامه باستخدام ختم السلطان وتوقيعه قرارات باسم عسكر السلطان خلال الحملة الصفوية، ولهذا كان قرار الإعدام عقب تلك الحملة التي عرفت بحملة العراقيين.

ويعد تعاظم نفوذ إبراهيم باشا من أهم أسباب إعدامه وهو كما اختصره الشاعر الفرنسي «لامارتين» بقوله: «نهاية حياة إبراهيم لم تكن لأي سبب ولا جريمة سوى عظمته».

هكذا لخص لامارتين النهاية المأساوية لإبراهيم باشا، لكن هذا لا يمنع من استغلال روكسلانه لتلك الأمور حتى تدخل الشك في قلب وعقل السلطان حتى يتوجس خيفة من صديقه ورجله الأول، فقد أوعز المغرضون بأن إبراهيم باشا يطمع في عرش المجر أو في العرش العثماني نفسه ولكن لا دليل على ذلك سوى وساوس أكدها الموقف الأخير في الحرب مع الصوفيين.

وكذلك يعتقد البعض أن إبراهيم ظل محافظاً على روابط مع جذوره المسيحية، وعمد إلى تقريب اليونانيين، وجلب والديه للعيش معه في العاصمة العثمانية؛ ما منح خصومه فرصة ترويج الإشاعات عن تمسكه بمسيحيته وخطورته على الدولة الإسلامية.

وأكد هذا الظن أن إبراهيم باشا بعد عودته من الحملة على المجر عام ١٥٢٦م، جلب إبراهيم باشا من مدينة «بودا» ثلاثة تماثيل تخص الآلهة الرومانية: «أبولو وهرقل وديانا»، ووضعها في ساحة قصره. فإن هذا التصرف يدل على ضعف العقيدة.

وسرعان ما انتشر في المجتمع العثماني بيت من الشعر نُسب إلى الشاعر فيجاني، وترجمته:

في هذا العالم ظهر إبراهيمان   الأول هَدَمَ، والآخر نَصَبَ الأوثان

ولكن هناك من ذكر أن تلك التماثيل قد أهداها السلطان إليه بعد فتح المجر ووضعها إبراهيم باشا في حديقة قصره وعظمها واهتم بها أكثر من اللازم.

ومن الأخطاء التي اتهم إبراهيم باشا بارتكابها حماية أقربائه اليونانيين ورعاية مصالحهم، والثابت أن الصدر الأعظم لم ينس أصله وعائلته، إذ زاره والده عام ١٥٢٧م، ولاحقًا استضاف أبواه وشقيقيه في الباب العالي، وقد أسلم والداه واتخذ أبوه لنفسه اسم يونس وحصل على منصب في إحدى السناجق العثمانية.

أضف إلى هذا كله أن السلطانة خديجة أم السلطان سليمان كانت هي المدافعة الأولى عن إبراهيم باشا بوصفه زوج ابنتها، فلما ماتت ظهر ضعف إبراهيم أمام قوة السلطانة روكسلانه.

وهناك سبب آخر ذكره المؤرخون وهو الغيرة الزوجية حيث قالوا: إنه كان لإبراهيم

باشا زوجة ثانية اسمها محسنة وربما كان ضحية لغيرة زوجته الأولى، شقيقة السلطان، السلطانة خديجة.

لكن هذا السبب لا أساس له بدليل حزن زوجته أخت السلطان عليه وموتها من بعده، فقد كان يجمع بين الاثنين حبٌّ يوازي حب سليمان لروكسلانه وقد تم عرض عشرة خطابات بين إبراهيم وزوجته السلطانة خديجة في معرض أقيم في تركيا خلال عام ٢٠١١ معرض «عشق السلاطين»، وهي جزء من محتويات الأرشيف العثماني التابع لرئاسة وزراء تركيا .

كما عرض في نفس المعرض خطابات تخص السلطان سليمان وروكسلانه.

وهناك معلومات تقول إن قبر إبراهيم باشا موجود في مدينة جزائرية تقع في أقصى الشرق الجزائري تسمى القل وتقع في ولاية سكيكدة على الشريط الساحلي وقبره لا يزال موجوداً في مقبرة كسير الباز لكن الرخامة التي كانت موجودة على قبره سرقت الذي روى هذه القصة ما زال حيًّا لأنه قرأ الرخامة ووجد مكتوب عليها تاريخ الوفاة وسببه الذي يقول إنه مات بمرض الطاعون، وتتواتر هذه المعلومات لأن الجزائر كانت أبعد ولاية عثمانية وأراد سليمان إبعاد قبره عن العاصمة حتى لا يتذكره إذا مر عليه وكذلك إرساله إلى أبعد ولاية عثمانية حتى لا يحن له ويزوره.

وإعدام إبراهيم نقطة تحول في حياة سليمان نفسه، إذ أصبح دائم الشرود والحزن، كثير البكاء، منصرفا تماماً عن أمور الحرملك السلطاني، أكثر من كتابة الشعر في مدح صديق عمره وذم نفسه عن خطئه في حق إبراهيم، ويعتقد الباحثون أن سبب ذلك هو قراءته لرسائل ومذكرات إبراهيم التى كتبها في الأسبوع الأخير قبل إعدامه واكتشافه لحقيقة نوايا إبراهيم تجاهه.

أي اكتشف أنه لم يقم بخيانته أو حاول الغدر به كما أقنعوه بذلك. [١]

وقبل شروع السلطان في التخلص من إبراهيم باشا حصل على فتوى تجيز له الحنث

---

١ - انظر موسوعة ويكيبيديا العالمية على الإنترنت.

بقسمه الذي أعطاه لإبراهيم باشا بألا يقتله أو يعزله لقاء بناء مسجد في القسطنطينية، والجدير بالذكر أنه أعطى فرصة لإبراهيم باشا كي يهرب حين ظل سبعة ليالٍ يتناول طعام العشاء معه مانحاً إياه بذلك فرصة الهرب، وقد كشفت رسائل إبراهيم باشا التي كتبها قبل إعدامه علمه بنية السلطان وقراره بقتله ومع ذلك ظل مكانه لم يهرب، حيث إنه لم يتصور تلك النهاية من السلطان.

ومما ذكر أن سليمان توجه إلى مفتى الديار في الدولة العثمانية وسأله:

– ماذا عسي برجل أقسم أمام صديق له أن لا يسجنه أو يقتله أو يعزله ما دام حيًّا ثم تبين له أن ذاك الصديق غادر خؤون، فهل له أن يحنث بقسمه؟

فكر المفتي وأعمل عقله في المسألة ثم هداه تفكيره إلى القول بـ:

– مولاي، إن للإنسان موتتين، صغرى وكبرى، أما الصغرى فهي النوم وأما الكبرى فهي التي تفصلنا عن دار الحساب، وبالنسبة للرجل الذي تسأل عنه وحصل أن مات غريمه أثناء نومه حينها لا أظنه قد حنث بقسمه.

ابتسم سليمان وانشرح صدره وخرج من عند المفتي ومضى وقد اتخذ قراره بإعدام إبراهيم باشا.

اهتزت العاصمة العثمانية لخبر مقتل الوزير الأول إبراهيم باشا وخاصة وقد عاد منتصراً ومظفراً من حملة العراقيين وانتصاراته التي حققها على الإيرانيين، وقد سرت الإشاعة بأن الوزير مات أثناء نومه لكن وجد في عنقه أثر جرح غائر أي أنه شنق أثناء نومه بوتر قوس وهي الطريقة المفضلة لقتل الخصوم في القصر السلطاني، ولأن إبراهيم باشا لم يكن صاحب شعبية في الشارع العثماني من جراء الإشاعة التي قد سرت مسبقاً بأن إبراهيم باشا قد وضع تماثيل يونانية مقدسة عن أهل اليونان الوثنيين لأحياء ديانته القديمة وكان مقتله في ٥ مارس ١٥٣٦م.

حديث الذكريات الأخيرة

جلس إبراهيم باشا في حديقة قصره وقد اختنق صدره فأحوال السلطان تجاهه مؤخراً ليست على ما يرام ولديه إحساس قوي أن السلطان يريد التخلص منه رغم أنه يستدعيه كل ليلة لتناول العشاء معه، إلا أن لديه إحساساً أنه عشاء الموت، سرح بفكره وجال خاطره الماضي البعيد والقريب الذي تجدد حين ذهب إلى بيرقا مسقط رأسه ومنبت طفولته، تنفس فيها هواء الذكريات من عشرين عاماً مضت، طلب من الوالي أن يدله إلى قصر الضيافة حيث ينزل أهله، ولما وصل إلى هناك طلب منه أن يدله إلى جناحهم، ولكنه لم يجدهم هناك، فذهب إلى حديقة القصر حيث وجد أباه يجلس تحت إحدى الأشجار.

فقد أمر إبراهيم باشا بعد البحث عن أسرته التي اختُطف منها وهو صبي أن يتم تكريمهم واستضافتهم في هذا القصر وهم لا يعلمون أنه أصبح الصدر الأعظم ولم يعلموا أن اسمه أصبح من ثيوس إلى إبراهيم باشا، وحين اقترب منه أبوه لم يعرفه ووقف لتحيته فقال: بخدمتك يا باشا.

كان رد الأب طبيعيًّا فهو ينتظر الباشا الوزير الأول ولا يعرف أنه ابنه الذي اختطف منه منذ عشرين عاماً..

قال له إبراهيم: أبتي.. أنا ثيوس.. أنا ابنك!!

نظر إليه الأب وتأمل ملامح ولده وصاح فرحاً: ثيوس أهذا أنت يا ولدي؟!

دمعت عيون الأب لما التقى بولده بعد تلك السنين وبكى إبراهيم كثيراً بعد هذا الفراق الطويل، وكاد الأب يسقط على الأرض مغشيًّا عليه من الفرحة فأمسك به إبراهيم باشا، وقال: نعم يا أبي أنا ابنك أنا الباشا الوزير الأول للسلطان قد منَّ الله عليَّ.

ثم جاء أخوه إلياس وتعانق معه، وتعرف على زوجة وأبناء أخيه، ولكنه سأل مستدركاً: أين أمي ؟؟

نظر الأب إلى إلياس وصمت ثم قال بصوت يكسوه الحزن:

- يرحمها الله توفيت منذ سنوات.

صمت إبراهيم قليلاً ثم قال له: وأين قبرها؟

فرد أخوه عليه: عند الشاطئ هنا في بيرق.

ذهب إبراهيم فوراً إلى قبر أمه، وجلس يبكي عنده، بكى حُزناً وألماً على لقاء انتظره لسنوات طويلة، كان يريد أن يكرم أمه ويعوضها عن معاناتها، كان يريدها أن تفخر به بعد ماوصل إليه من منصب ومال وجاه.

ولكن أحلامه ذهبت أدراج الرياح، لكن قال في نفسه سوف أعوض ذلك كله بإكرام أبي وعائلتي.

جاءه أخوه إلياس ليواسيه فقال: أمي كانت تدعو لك دائماً يا إبراهيم، كنت أراها تقوم في آخر الليل وقد ابتلت عيناها بالدموع لتدعو لك، كانت تحبك كثيراً يا إبراهيم وكانت تتمنى أن تراك تكبر بقربها، عندما مرضت مرضها الأخير أوصتني أن أدفن معها ثيابك القديمة، التي كانت تحتفظ بها كانت تريد أي أثر يذكرها بك حتى في آخر عمرها.

حزن إبراهيم كثيراً لما سمع ذلك، قضى تلك الليلة بجوار قبر والدته يدعو لها، ويقرأ بجوارها القرآن حتى هدأت نفسه.

وفي اليوم التالي اشترى بيته القديم بأضعاف ثمنه، وأمر بتجديده، ثم اشترى لأبيه وأخيه بيوتاً جديده وأعطاهم من المال الكثير. ثم طلب منهم جميعاً أن يرافقوه فقبلوا بذلك على أن تكون زيارتهم دائمة لبيرقا موطنهم.

وقبل أن يغادر قام بصرف مبالغ شهريه لفقراء بيرقا صدقة عن أمه الراحلة، ووزع عليهم الكثير مما يحتاجونه من طعام وشراب وكساء، كان من بينهم جارتهم القديمة إلينا التي كان يحبها كثيراً في طفولته فقد كانت صاحبة أمه، وكان يلعب هو وأخوه مع أطفالها لما كانوا صغاراً.

فجاءت لتشكره، وقالت له: كم بكينا عليك يا إبراهيم لما فارقتنا ولم نكن نحلم أن تعود لنا بالخير الكثير.

فقال: إن كان جسدي بعيداً فإن قلبي وروحي كانا معكم هنا في بيرقا ولم تفارقكما أبداً..

أقام الوالي والأهالي الأفراح والاحتفالات بقدوم الوزير الأول إبراهيم باشا الذي لم يخفي تأثره الشديد لعودته إلى موطنه ولقاء الأهل والأحبة.

أفاق إبراهيم باشا على صوت الحاجب يعلنه أن السلطان ينتظره على العشاء في القصر كعادته في الأيام الأخيرة، فقام إبراهيم من فوره وارتدى ملابسه وتوجه للقاء السلطان ولكنه لم يعد مرة أخرى لقصره فقد نفذ السلطان فيه حكم الإعدام بالخنق ولم يقابله هذه المرة.

روكسلانه والأمير مصطفى

ولد الأمير مصطفى ابن السلطان سليمان عام ١٥١٥م بعد زواج سليمان من ماه دوران وهو ما زال وليًّا للعهد فكان الابن الأكبر لأبيه ووليًّا لعهده.

وبعد زواج أبيه السلطان من معشوقته وجاريته روكسلانه وإنجابها الأمير محمداً والأمير سليماً، بدأت تخطط للإطاحة بالأمير مصطفى لإفساح الطريق لأحد أبنائها محمد أو سليم لتولي ذلك المنصب المؤدي إلى منصب آخر أعلى وهو سلطان الدولة العثمانية وكان العائق الهام أمامها هو الوزير الأول إبراهيم وقد تم التخلص منه كما تم التخلص من الزوجة الأولى كما ذكرنا وإبعادها عن القصر السلطاني في العاصمة إلى آماسيا هي وابنها ولي العهد مصطفى.

شارك الأمير مصطفى في معارك كثيرة وفتوحات وأظهر شجاعة وبطولة جعلت الإنكشارية والسباهية من الجيش العثماني يعجبون به ويتمنون أن يكون سلطاناً عليهم بعد أبيه الذي تقدم به العمر.

استطاعت روكسلانه إفساد العلاقة الأسرية بين السلطان وزوجته الأولى بداية وتم نفي وإبعاد «ماه دوران» الزوجة الأولى وغريمتها وابنها ولي العهد مصطفى إلى آمسيا البعيدة عن استنبول العاصمة وكانت الحجة وقتها أن ذلك من التقاليد العثمانية السلطانية بأن يحكم ولي العهد ولاية قريبة من العاصمة وهذا لم يحدث، فقد تم تعيين

ولي العهد في البداية حاكماً على ماغيسيا في الأناضول والقريبة نسبيًّا من العاصمة ثم نقل إلى أماسيا البعيدة عن العاصمة مسيرة خمسة وعشرين يوماً.

وبعد اغتيال إبراهيم باشا تعاظم نفوذ روكسلانه حيث جعلت السلطان يختار رستم باشا في منصب الصدر الأعظم بدلاً من إبراهيم باشا رستم الذي كان زوج ابنتها الوحيدة «محرمة» وهكذا أصبح الصدر الأعظم معاوناً لها في تحقيق رغبتها في تعين ابنها وليًّا لعهد.

وللقضاء على الأمير مصطفى ولي العهد كان على روكسلانه والصدر الأعظم الجديد وزوج ابنتها إيغار صدر السلطان تجاهه كما حدث مع إبراهيم باشا واقتناع السلطان أن ابنه مصطفى يدبر للانقلاب عليه والاستيلاء على السلطة كما فعل أبوه سليم الأول في أبيه السلطان بايزيد الصوفي، وكما حدث أيضاً مع السطلان سليمان وأبيه سليم الأول في أواخر أيام سليم الأول الذي كاد أن يطيح بابنه الوحيد سليمان خوفاً على كرسي السلطنة وكان هذا الأمر شائعاً في الدولة العثمانية حتى أنه صار من قوانينها أن يقوم السلطان الجديد بقتل إخوته قبل جلوسه على كرسي الحكم.

وتبدأ المؤامرة حين تم اختراق نظام سلطاني أقامه السلطان سليمان في بداية حكمه وهو نظام المراسلة والتجسس داخل الدولة كي يكون لدى السلطان أدق أسرار الدولة فيتخذ قراراته قبل حدوث أي أمر هام يهدد السلطان أو الدولة، وكان هذا النظام قد تم الاتفاق عليه مع إبراهيم باشا الذي كان مسؤولاً عنه.

ولكن هذا النظام تم اختراقه بقتل أكثر من خازندار للأسرار في أكثر من ولاية مما أثار الريبة في نفس السلطان واقتناعه أن وراء ذلك هو إبراهيم باشا وابنه مصطفى الذي يريد أن يطيح به.

وكان نظام جمع الأسرار يقتضي أن يكون هناك رجال للسلطان في كل البلاد والمدن الكبرى مثل دمشق والقاهرة وحلب وقينة والقفقاس والأناضول وكل مدن الدولة، وبعد مقتل مسؤول الأسرار في قونية ثم في حلب ثم القدس والقاهرة وكلهم يعملون

في هذا النظام برتبة خازندار أسرار السلطان، حسب السلطان بأن هناك مؤامرة مدبرة وارتاب من صديقه إبراهيم باشا، وإضافة إلى شكوك أخرى قرر السلطان التخلص منه وبعد أن تم له ذلك جلس السلطان يفكر:

- ترى لمن أباح إبراهيم باشا بأسماء خازني الأسرار؟

لقد تم قتل خازندرات الأسرار بطرق مختلفة ومريبة ووحشية وهي رسالة واضحة موجهة لي يريد صاحبها أن يقول لي إنني أعلم بكل الأسرار وإنني قادم إليك.

كانت المؤامرة وراءها روكسلانه وزوج ابنتها رستم باشا الذي أصبح الصدر الأعظم، والهدف واضح هو وضع الشك في صدر السلطان تجاه ابنه كما حدث بالصدر الأعظم إبراهيم باشا، وهذا ما حدث بالفعل، فقد أقنع رستم باشا السلطان بأن ابنه مصطفى يتآمر عليه من أجل الاستيلاء على السلطة وقد اتفق مع طهاس الأول شاه الدولة الصفوية الإيرانية لتحقيق ذلك فأصبح السلطان يتوجس خيفة من ابنه ولي العهد، وأبلغ رستم باشا أنه سمع الجنود الإنكشارية يقولون إن السلطان قد أصبح طاعناً في السن ووهن العظم منه حتى إنه لا يستطيع قيادة الجيوش بنفسه وقد حان الأوان لتولية ابنه مصطفى بدلاً منه.

ذهب السلطان إلى شيخ الإسلام أبي السعود فقال له: [١]

- ما رأي فضيلتكم في تاجر ثري مرموق وتطلب تجارته أن يغيب عن العاصمة بعض الوقت وعهد إلى أحد عبيده قد أحسن له كي يشرف على أعماله وتجارته ويراعي في نفس الوقت أمور زوجته وأولاده، وما إن غادر التاجر العاصمة حتى سعى هذا العبد إلى اختلاس أموال وتجارة سيده وتآمر على حياة زوجته وأولاده.

فما هي العقوبة التي يستحقها هذا العبد الخائن لسيده؟

فقال له الشيخ أبو السعود: يستحق الإعدام.

١- انظر الدولة العثمانية، د. عبدالعزيز الشناوي، نقلاً عن المؤرخ ليبير الأمريكي التي وضعها في كتابه نقلاً عن أحد السفراء للملك شارلكان والمقيم في أستنبول عام ١٥٥٥ حتى ١٥٦٢م.

واستراح السلطان لهذه الفتوى، فأرسل في استدعاء ابنه الأمير مصطفى إلى آمسيا حيث يقيم السلطان مع جيشه ونصح أصدقاء الأمير مصطفى الأمير بعدم الذهاب خشية مقتله، لكنه رفض النصح وقال لهم: إن طاعة الوالدين أمر واجب وأمر يفرضه الدين وإنه لم يرتكب أي خطأ يعاقب عليه أو يغضب والده منه وحتى لو قتله والده فهو ملك له فهو الذي أتى به إلى الحياة.

ولمَّا حضر الأمير مصطفى ليمثل بين يدي والده السلطان كان ينتظره رجال أشداء خرس هم كتيبة الإعدام، فما كاد يصل إلى خيمة أبيه السلطان حتى انقض عليه الجنود الخرس وقاموا بخنقه بحبل القوس فقتلوه خنقاً في سبتمبر ١٥٥٣م.

يقول د. عبدالعزيز الشناوي في كتابه الدولة العثمانية معلقاً على حادثة مقتل الأمير مصطفى: وكان من سوء حظ الدولة العثمانية أن تمت هذه الفعلة الشنعاء، إذ كان من بين نتائجها:

١- حرمان الدولة من سلطان مرتقب هو الأمير مصطفى الذي أجمع معاصروه على أنه كان يتمتع بكفايات ممتازة، تجعله جديراً بارتقاء العرش خلفاً لسلطان عظيم هو سليمان المشرع.

٢- اندلاع حرب أهلية في الدولة، فقد كان الأمير سليم أكبر أبناء السلطانة روكسلانه موضع احتقار شديد من الفيالق الإنكشارية وكانت تصرفاته المشينة موضع حديث الجماهير، تم وقف الجيش في وجهه بصفته وليًّا للعهد، قد ألبت الآمال الابن الثاني لروكسلانه وهو الأمير أبو يزيد وكان حاكماً على أقليم «خرمان» جنوبي آسيا الصغرى وأراد أن يستأثر بولاية العهد دون أخيه الأكبر واستعان بقوات من الجيش واندلعت حرب أهلية وحدث انقسام خطير في صفوف الجيش، وماتت السلطانة روكسلانه في مستهل هذه الحرب.

واستطاع السلطان وابنه سليم الثاني ولي العهد من هزيمة الأمير أبي يزيد في قونية عام ١٥٥٩م وفر الأمير أبو يزيد إلى بلاد فارس ولجأ إلى شاه الدولة الصفوية، الذي باعه

للسلطان سليمان مقابل ٤٠٠ ألف قطعة ذهبية وسلمه إلى رجال السلطان الذين قتلوه ومعه أبناءه الخمسة عام ١٥٦١م.[1]

ويرى البعض أن قيام روكسلانه بمؤامرة قتل الأمير مصطفى لأنها تعلم أن القانون السلطاني العثماني بأن الابن الأكبر للسلطان هو الذي يتولى السلطنة وأنه يجوز له أن يقتل إخوته لاستقرار الحكم. وعدم تفكك الدولة وقد حدث هذا كثيراً قبل سليمان وبعده حتى عصر السلطان عبدالحميد.

ولهذا سعت روكسلانه من التخلص من الأمير مصطفى ولا سيما أنه كان قائداً عسكريًّا مشهوداً له بالكفاءة والبطولة وأن الجيش يحبه ويدين له بالولاء.

ولذلك قام رستم باشا بتنفيذ تعليمات روكسلانه بالدسيسة والوشاية لدى السلطان بأن ابنه ولي العهد يتآمر عليه بالاتفاق مع الشاه الصفوي «طهماسب» للانقلاب عليه و تولي الحكم وكان ذلك بعد أن تولى الأمير مصطفى قيادة الجيش في حربه ضد الشاه «طهماسب» عام ١٥٥٢م.

وكانت وفاة روكسلانه عقب اغتيال الأمير مصطفى بخمس سنوات.

وقد كتبت قصائد رثاء للأمير مصطفى من العلماء والشعراء في عصره، وقد تظاهر السلطان سليمان بأنه لم يقتل ابنه، فلما وصل إلى الأستانة وصله خطاب من الديوان مكتوب بحبر أبيض على ورق أسود يخبره بموت ابنه، وحينئذ ألقى بعمامته إلى الأرض وأمر بإقامة الحداد على ابنه.

ورغم ذلك فإن الإنكشارية وفرسان الأناضول وقطاع الطرق احتجوا على قتل الأمير مصطفى، وتحالفت قوى المعارضة التي دعمت الثورة ضد حكم سليمان في الروميللي، يقودها رجل ادعى أنه الأمير مصطفى الذي نجا من القتل وانضم إلى الأمير المدعي الكثيرون الذين كانوا يودون أن تستأنف الدولة حروبها في الغرب ضد أوربا

---

١ - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبدالعزيز محمد الشناوي.

المسيحية، وسرعان ما احتل المدعي مصطفى تراقيا ومقدونيا ودبروجة.

إلا أن سليمان قضى على التمرد وقتل آلافًا ممن اشتركوا فيه وصادر ممتلكات الفرسان المتورطين في الحركة.

وبناءً على تمرد الإنكشارية قام السلطان بعزل الصدر الأعظم مدبر المؤامرة رستم باشا وولي مكانه الوزير أحمد باشا، ولكن روكسلانه أغرت السلطان حتى قتله وأعاد رستم باشا.

واستتبع مقتل الأمير مصطفى موت الأمير جهانكير «جهاد» حزناً شديداً على قتل أخيه مصطفى رغم أنه لم يكن أخاً شقيقاً ولكنه كان في رعاية أخيه مصطفى، فمات بعده بقليل حتى أطلق عليه شهيد المحبة الأخوية واختلف في كيفية موته فقيل إنه قتل نفسه أمام والده السلطان بعد أن أظهر اعتراضه على مقتل أخيه وقيل غير ذلك. [(١)]

تلك الأحداث تدل على مدى حب الجيش العثماني للأمير مصطفى وكذلك قتل ابنه الطفل الصغير، ثم جاء تمرد الأمير بايزيد ابن روكسلانه غضباً على تولية أخيه الشقيق سليم ولاية العهد وانتهى الأمر بمقتله وأولاده أيضاً كما ذكرنا.

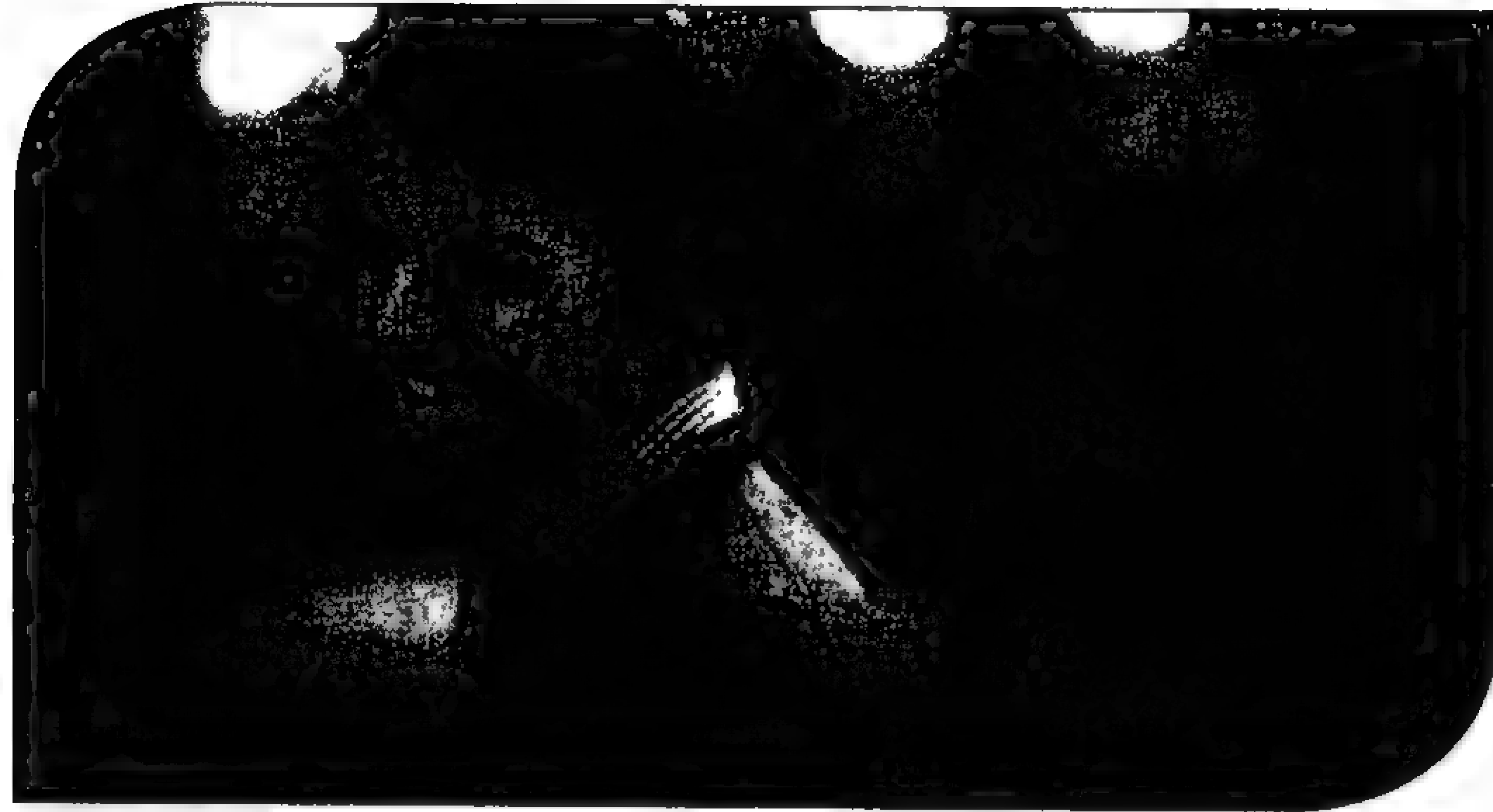
وبايزيد (١٤ سبتمبر ١٥٢٥-٢٣ يوليو ١٥٦٢) هو الابن الذكر الرابع للسلطان سليمان القانوني والثالث من زوجته الثانية روكسلانه وكذلك فقد مات محمد ابن السلطان من روكسلانه وهو أكبرهم منها عام ١٥٤٣م. ووفاة جهانكير أصغر أبناء السلطان في نفس العام الذي قتل فيه الأمير مصطفى .

وكان بايزيد يصغر سليمًا بنحو ١٦ شهراً، رغم ذلك كان أكثر فعالية وأكثر حرصًا كما كان رجلاً عسكريًّا من الدرجة الأولى، واشترك في أربع حملات سلطانية وكتب الشعر باللغتين العثمانية والفارسية تحت الاسم الأدبي «شاهي». وانتهى به الحال إلى هزيمته عسكريًّا أمام جيش أبيه السلطان وأخيه ولي العهد ثم مقتله لقاء صفقة حصل طهماسب على ٥٠٠ ألف ليرة ذهبية ومجوهرات ثمينة مقابل تسليم بايزيد وأبنائه الأربعة التي

١- انظر تاريخ الدولة العثمانية، مصدر سابق.

سُلّمت إلى السفراء العثمانيين عام ١٥٦١م حيث تم قتلهم ودفنهم في مدينة سيواس ثم قتل الخامس من أولاد بايزيد. (١)

وهكذا لم يبق من أولاد سليمان الذكور، سوى سليم السكير الذي خلفه في الحكم والسلطنة وكان عهده بداية انحدار الدولة العثمانية.



«محمد جنسور» الممثل التركي الذي قام بتجسيد دور الأمير مصطفى بن سليمان ولي العهد في المسلسل التركي حريم السلطان الذي يحكي قصة السلطان سليمان القانوني.

١ - كان للأمير بايزيد خمسة أولاد ذكور قتل معه أربعة هم أورخان ومحمود وعبدالله وعثمان في مدينة قوينة، وكان له ابن صغير تم خنقه وقتله ودفن بجانب والده وإخوته.

6

هلاك روكسلانه بنيران مؤامراتها

- تصاعد نيران المؤامرات يؤدي إلى نهاية روكسلانه.

تصاعد نيران المؤامرات يؤدي إلى نهاية روكسلانه

قال محمد بك فريد في كتابه تاريخ الدولة العثمانية في وصف روكسلانه: «ولم تكتف هذه المرأة بربرية الطباع بقتل مصطفى سلطان بل أرسلت إلى مدينة بورصة من قتل ابنه الرضيع وقال في ذلك بعض الشعراء:

يــا دهــر ويحــك مــا أبقيــت لي جلــداً

وأنـــت والـــد ســوء تــأكل الولــدا

وذكر عن مؤامرتها في قتل الأمير مصطفى بمساعدة زوج ابنتها الصدر الأعظم رستم باشا أنه انتهز فرصة الحرب بين الدولة ومملكة العجم ١٥٥٣م، ووجود مصطفى ضمن قواد الجيش وكتب إلى أبيه السلطان أن ولده يحرض الإنكشارية على عزله وتنحيته وكما فعل السلطان سليم الأول مع أبيه السلطان بايزيد الثاني، فلما وصل هذا الخبر إلى السلطان وكانت (روكسلانه) قد تمكنت من تغير أفكاره فقام في الحال قاصداً بلاد العجم متظاهراً بأنه يريد أن يتولى الجيش، فلما وصل إلى المعسكر استدعى ولده المسكين إلى سرادقه في ١٢ شوال ٩٦٠هـ - ٢١ سبتمبر ١٥٥٣م، وبمجرد وصوله إلى الداخل خنقه بعض الحجاب المنوطين بتنفيذ مثل هذه الأوامر، فقتل رحمه الله شهيد دسائس زوجة والده وعدم تثبت أبيه مما نسب إليه.

وأضاف: وكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء في تاريخ السلطان سليمان الذي اتسعت دائرة السلطنة في أيامه، ولولا دسيسة هذه المرأة الأجنبية التي ربما كانت مؤجرة لهذه الغاية لبقى اسمه لا تشوبه شائبة ثم نقلت جثة الشهيد إلى مدينة بورصة ودفنت مع جثث أجداده.

هكذا ذهب محمد فريد أن وجود مؤامرة وراء أفعال تلك المرأة ولهذا ذهب البعض أنها من أصل يهودي ماسوني.

ورغم هذا الكيد والمكر الذي تزول منه الجبال كان مكر الله هو الغالب، فقد توالت المصائب على رأس روكسلانه فمات ابنها جناكير حزناً وكمداً على مقتل أخيه مصطفى وإن كان أخاً غير شقيق، مات في العام وأطلق عليه شهيد المحبة الأخوية.

ثم جاء تمرد بايزيد ابنها على تعيين أخيه الأكبر منه بشهور في ولاية العهد تمهيداً لاعتلائه كرسي السلطنة فأعلن التمرد العسكري، فكيف حدث ذلك؟

كان وراء مؤامرة قتل الأمير بايزيد بن سليمان من روكسلانه أخيه الشقيق وولي العهد الأمير سليم، وذلك أن مربي بايزيد يدعى «لا لا مصطفى» تم تعينه ناظر خاصة سليم، ولما كان سليم يخشى مزاحمة أخيه له في ولاية العهد كاشف «لا لا مصطفى» بأنه يريد إزاحة أخيه بايزيد من المشهد السياسي حتى يكون هو الوريث الوحيد لملك آل عثمان، فأشار عليه أن يكتب لبايزيد خطاباً يخبره أن أخاه سليماً منهمك في الشهوات وأنه لا يصلح لأن يخلف السلطان في الحكم.

فتبادلت المكاتبات بشأن ذلك وكتب بايزيد إلى أخيه سليم خطاباً به بعض عبارات تمس كرامة والدهما، فقام بايزيد بإرسال الخطاب لأبيه الذي غضب غضباً شديداً وكتب لبايزيد يوبخه على ما أتاه ويأمره بالحضور إليه من قونية التي كان والياً عليها إلى مدينة أماسيا، وهنا خشي بايزيد على نفسه من غدر أبيه كما فعل مع أخيه مصطفى فامتنع عن إطاعة الأمر وجهز جيشاً يبلغ عدده عشرين ألفاً وأعلن التمرد.

أرسل السلطان جيشاً بقيادة الوزير محمد باشا الصقللي (ذو اللحية) لمحاربته وقتاله،

وهُزم بايزيذ وجيشه وهرب من أماسيا إلى بلاد العجم والتجأ ومعه أولاده إلى الشاه طهماسب الصفوي، فقابله ورحب به وأعطاه الحماية، ثم كتب إلى السلطان سليمان وابنه ولي العهد سليم سرًّا يفاوضهما على تسليم الأمير بايزيد وأولاده إليهما مقابل مبلغ من المال.

وبالفعل تمت الصفقة وسلم الشاه بايزيد وأولاده لرسل السلطان وتم قتلهم جميعاً في قزوين بلاد العجم في ١٥ محرم ٩٦٩هـ - ٢٥ سبتمبر ١٥٦١م ونقلت جثثهم إلى مدينة سيواس حيث دفنوا هناك وكان لبايزيد طفل صغير في مدينة بورصة تم قتله خنقاً أيضاً ودفن مع أبيه وإخوته.

وماتت روكسلانه في بداية الحرب والتمرد الذي قام به ابنها بايزيد وحاولت أن تجعل السلطان أن يصدر أوامره بالعفو عنه ولكنه رفض وقال لها: إنه ليس بأفضل من ابني مصطفى.

وكان موتها عن عمر يناهز الخمسين عاماً غامضاً أيضاً، فقد أضرمت نيران المؤامرات في القصر العثماني وقتل أبناء وأحفاد السلطان سليمان في تلك المؤامرات ولم يبقَ منهم سوى ابن روكسلانه سليم الذي عرف فيما بعد باسم السلطان سليم الثاني.

ومما قيل في موتها أنها قتلت بالسم من أعدائها داخل القصر، وأهمهم محسنة الزوجة الأولى لإبراهيم باشا، بل قيل إن السلطان نفسه قد أمر بموتها بالسم بعد أن علم بما فعلته من مكائد ومؤامرات وفقد لأولاده وأحفاده وتمرد ابنه بايزيد من روكسلانه عليه.

وقيل إن روكسلانه ماتت غمًّا وكمداً بعد فقدها لأبنائها محمد ثم جهانكير ثم تمرد بايزيد وتأكدها مَن مقتله على يد جيش أبيه، وهكذا انفرت عقد أسرتها حتى إن الكثير من المؤرخين يؤمنون بأنها كانت وراء تلك المؤامرة الماسونية اليهودية على الدولة العثمانية وخاصة سلطانها العظيم سليمان القانوني.

وهكذا وتوفيت روكسلانه في أبريل ١٥٥٨م بعد خمس سنوات من مقتل الأمير مصطفى وبعد تمرد ابنها بايزيد وتأكدها من عدم عفو أبيه السلطان سليمان عنه بعد

رفض طلبها لديه من العفو عليها وإصراره على أن يلقى جزاء أخيه مصطفى، وكذلك موت ابنها «جهانكير» حزناً على مقتل أخيه غير الشقيق مصطفى ودفنت روكسلانه في ضريح خاص بها مقبب يتبع المسجد السليماني وقد دفن السلطان سليمان فيما بعد قريباً منها.

7

حديث الذكريات والنهاية

- شريط العمر والذكريات في عقل السلطان فالحاضر ما هو إلا آثار الماضي.
- وفاة السلطان سليمان القانوني.

شريط العمر والذكريات في عقل السلطان فالحاضر ما هو إلا آثار الماضي

جلس السلطان في حجرته الخاصة بالقصر وحيداً يتناول طعامه منفرداً حزيناً، فقد هلك كل أحبائه ومقربيه وأولاده، رحلت أمه السلطانة عائشة بعد أن تجاوز عمرها الثمانيين عاماً وكانت رمانة الميزان للقصر السلطاني ورحلت حبيبة القلب زوجته روكسلانه ومن قبلها صديقه ورفيق عمره إبراهيم باشا وأولاده الذكور وابتعاد زوجته الأولى في «بورصة» بجوار قبر ابنها مصطفى، هكذا أصبح وحيداً وقد كبر سنه ووهن العظم منه وقد تجاوز السبعين من عمره وأصابه النقرس فلا يقدر على شيء حتى ركوب الخيل.

استرخى السلطان على سريره ومر أمامه شريط حياته وذكرياته فمنذ أن جلس على كرسي الحكم بعد وفاة والده السلطان سليم الأول وهو يقود الجيوش ويفتح البلدان ويقاوم المؤامرات والتمردات التي واجهته وهو في بداية حكمه وعمره ستة وعشرون عاماً.

فبعد أن قضى على التمرد الداخلي في دولته من أمراء المماليك في الشام ومصر ثم التمرد الشيعي قاد ثلاث عشرة حملة كان أولها حملة بلغراد وضم المجر إلى الدولة العثمانية وقام بفتح جزيرة رودس، وكانت معركة «موهاكس» أهم انتصاراته في ١٥١٦م، واستطاع سليمان القضاء على شارلكان الأمبراطور الروماني المقدس لدى الغرب الصليبي في

معارك كثير، وامتد سلطان الدولة العثمانية إلى بلاد المغرب العربي في الجزائر وكذلك سيطر أسطولها على البحر المتوسط وأصبحت في عهده الدولة العظمى الكبرى التي يحتمي بها الجميع؛ حتى إن الملك الفرنسي فرانسوا لجأ إلى السلطان للتصدي للإمبراطور شارلكان.

كل هذه الأحداث وغيرها مرت أمام مخيلة السلطان الوحيد الحزين وفي أثناء ذلك جاءته الأخبار بأن ملك الهايسبرج قد أغار على ثغر من ثغور المسلمين فأمر السلطان الجيش بالاستعداد والتوجه إلى بلاد المجر لردع ذلك الملك.

وفاة السلطان سليمان القانوني

مع أن السلطان سليمان كان يتألم من شدة المرض إلا أنه قاد الجيش بنفسه وخرج على رأس جيش عرمرم في ٩ شوال عام ٩٧٣هـ، ٢٩ أبريل عام ١٥٦٦م، ووصل الى مدينة سيكتوار المجرية وكانت من أعظم ما شيَّده النصارى من القلاع.

وخرج بالفعل على رأس جيشه وما كان يستطيع أن يمتطى جواده لازدياد علة النقرس عليه، فكان يُحمل في عربة، حتى وصل الى أسوار مدينة سيكتوار.[١]

وابتدأ السلطان حصار المدينة وفى أقل من أسبوعين احتلّ معاقلها الأمامية، وبدأ القتال واشتدّ النزال، وكان أصعب قتال واجهه المسلمون لمتانة الأسوار والضراوة في الدفاع.

واستمر القتال والحصار قرابة خمسة أشهر كاملة، واشتدّ مرض السلطان وشعر بدنوّ الأجل، فأخذ يتضرع الله تعالى فيقول:

«يارب العالمين، افتح على عبادك المسلمين، وانصرهم، وأضرم النار على الكفار».

فاستجاب الله دعاء السلطان سليمان، فأصاب أحد مدافع المسلمين خزانة البارود في الحصن فكان انفجارا مهولاً.

فاستجاب الله دعاءه فأضرمت النار في خزانة بارود الكفّار المخزونة بالقلعة، وكانت

---

١ – مدينة سيكتوار إحدى مدن مقاطعة باراينا جنوب المجر.

موفورة عندهم مهيأة لقتال المسلمين، فأصابها شرر من النّار، فأخذت جانباً كبيراً من القلعة فرفعته الى عنان السماء، وزلزلت الأرض زلزالها الى تخوم الأرض السفلى، وتطايرت صخور الحصن، والتهبت النار وتزايد الدخان إلى عنان السماء، فضعفت عزيمة الأعداء وهجم الجيش العثماني وحملوا حملة رجل واحد عليهم بعد أن تسوروا الأسوار ووقع القتل في صفوف أعداء الله وتحقق النصر للمسلمين وعمت الفرحة وعند وصول خبر الفتح للسلطان سليمان فرح و حمد الله وقال:

«الآن طاب الموت»

وفاضت روحه إلى بارئها رحمه الله وغفر له في سبتمبر ١٥٦٦م؛ ونال ما تمنى في الموت غازياً في سبيل الله حيث نصحه طبيبه بعدم الخروج فأصر على الخروج وقال له: «أحب أن أموت غازياً في سبيل الله».

8

السلطان العاشق في مسلسل حريم السلطان

- مسلسل حريم السلطان بين الدراما والتاريخ.
- أبطال المسلسل بين الدراما والتاريخ.
- السلطانة الأم حائط صد لكل مؤامرات هويام.
- هويام ومحاولات اغتيال الأمير مصطفى.
- عدم رضاء الأتراك عن المسلسل.
- نماذج من أهم الأحداث الدرامية في المسلسل.
- الأميرة إيزابيل شخصية تاريخية حقيقية لكنها لم تعاصر سليمان.
- محاولات روكسلانه قتل الأمير مصطفى في المسلسل.
- مقتل إبراهيم باشا في المسلسل من فعل مكائد ومؤامرات هويام «روكسلانه».

مسلسل حريم السلطان
بين الدراما والتاريخ

أنتجت تركيا مسلسلاً عن حياة السلطان سليمان القانوني أسمته «القرن العظيم» وعرف في البلاد العربية باسم حريم السلطان حاز هذا المسلسل الضخم ذو الأجزاء الثلاثة حتى الآن شهرة جماهيرية واسعة، من خلاله تعرف الناس على شخصية أعظم سلاطين الدولة العثمانية، السلطان العاشر الذي حكم الدولة العثمانية سبعة وأربعين عاماً هي أطول فترة حكم للسلاطين العثمانيين على مدار تاريخها الطويل الذي تجاوز الستمائة عام منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادي حتى بدايات القرن العشرين.

ويرى المؤرخون أن الدولة العثمانية ظهرت للوجود من الإمارة إلى السلطنة في عصر مؤسسها عثمان بن أرطغرل عام ١٣٠٨م - سنة ٧٠٩هـ عندما توفى آخر سلاطين سلاجقة الروم غياث الدين مسعود الثالث فورث ميراث دولة السلاجقة واتخذ مدينة بني شهر عاصمة له واستمرت تلك الدولة حتى أعلن كمال أتاتورك عن انتهائها عام ١٩٢٣م وأبقى على منصب الخلافة الإسلامية الرمزية حتى عام ١٩٢٤م. [١]

ويعد السلطان سليمان القانوني من أعظم هؤلاء السلاطين نتيجة للفتوحات التي قام بها واتساع الرقعة الجغرافية لدولته في عهده حتى أصبحت الدولة الكبرى والعظمى في زمانه.

---

١ - اقرأ كتابنا الدولة العثمانية من الإمارة إلى الخلافة، ففيه المزيد عن تاريخ تلك الدولة وسلاطينها، الناشر دار الكتاب العربي، دمشق - القاهرة.

والمسلسل التركي «حريم السلطان» قد جذب المشاهدين لروعة التقنيات المستخدمة في تصويره وأماكن التصوير حيث تم التصوير في القصور العثمانية الحقيقية واتقان الحوار والسرد التاريخي للأحداث وروعة أداء الممثلين والخلفية التاريخية التي هي أساس قصة المسلسل.

ومع هذا إن المسلسل قد وقع في أخطاء تاريخية يرى منتجو العمل أنها لصالح الحبكة الدرامية فأصبح المسلسل دراميًّا ذا خلفية تاريخية.

أظهر المسلسل السلطان العثماني سليمان القانوني في صورة زير للنساء وعاشق للحريم والجواري وسلط الضوء على هذا الجانب الكاذب لتشويه صورة هذا السلطان العظيم كما يطلق عليه الغرب الصليبي.

في الجزء الأول من المسلسل نجد الشخصية المحورية بجانب السلطان هي أمه السلطانة حفصة عائشة ثم زوجته الأولى ناهد دوران ثم تظهر شخصية ثالثة هي روكسلانه التي عرفت في المسلسل باسم «هويام» ويحلو للبعض أن يصف تلك الجارية التي أحبها السلطان وتزوجها بأنها يهودية وهذا الوصف لا أساس له من الناحية التاريخية، وإنما جاء بناءً على أفعالها ومكائدها التي تشبه مكائد اليهود وكونها ذات أصول روسية أو أنها مجهولة الأصل، والأرجح أنها أوكرانية ويوجد لها تمثال في بلدتها بأوكرانيا الآن.

أبطال المسلسل بين الدراما والتاريخ

قام ممثلون أتراك بأداء أدوار مميزة في المسلسل التركي «القرن العظيم» أو ما عرف في الوطن العربي بـ «حريم السلطان» وحسب أدائهم لأدوارهم التاريخية على النحو التالي:

- السلطان سليمان القانوني وقام بأداء دوره الممثل خالد ارغنش.
- روكسلانه زوجة السلطان الثانية والتي كانت جارية له، قامت بدورها الممثلة الألمانية ذات الأصول التركية «مريم أوزيرلي» وتم تعريب اسمها في المسلسل لـ «هويام».
- ناهد دوران أو وردة الربيع الزوجة الأولى للسطان وقامت بدورها «نور فتا هغلو» وهي في القصة الحقيقية التاريخية أم الأمير مصطفى.
- أم السلطان عائشة حفصة، قامت بدورها نبيا هان جيري.
- الصدر الأعظم إبراهيم باشا، قام بأداء دوره الممثل التركي «أوكان يالبيك».
- زوجة الصدر الأعظم إبراهيم باشا وأخت السلطان السلطانة خديجة قامت بأداء دورها الممثلة التركية «سلمى ارغنش».
- الأمير مصطفى ابن السلطان سليمان قام بدوره الممثل التركي محمد فونسار.

- الجاريةُ فريال وهي شخصيةٌ دراميةٌ في المسلسل وليس في الوقائع التاريخية وهي مسؤولة الخدم في الحرملك السلطاني وقامت بدورها الممثلة التركية «نيجار كالف» وهي تعادل شخصية «محسنة» في القصة التاريخية زوجة إبراهيم باشا.
- «درة» وصيفة السلطانة الأم و قامت بدورها الممثلة التركية «سلمى كشيك».
- كبير الأغوات في الحرملك «سمبل أغا» وقام بأداء دوره الممثل التركي «سليم باركتار».
- «كوثر» وصيفة السلطانة ماه دوران «ناهد دوران» قامت بأداء دورها الممثلة التركية «نهال بيو كاتشج».

فالزوجة ناهد دوران «ماه دوران» معناه (وردة الربيع) أطلقه عليها السلطان سليمان لأنها كانت تحب اللون الأحمر وكانت تبدو كالوردة في فصل الربيع.

وكان أبوها عبدالله الألباني شاعراً وموسيقيًّا ثريًّا وقد كان صديقاً حميماً للوزير الاعظم إبراهيم باشا، أنجبت للسلطان ابنه البكر ولي العهد الأمير مصطفى.

وروكسلانا جارية أوكرانية، اخطفتها عصابات المغول التي كانت تنهب القرى وتقتل الناس، وبعد هزيمة المغول على يد العثمانيين وتم إلحاقها بالقصر مع الجواري ويقال إن أول سيد لها إبراهيم باشا ثم أهداها للسلطان الذي أحبها ثم تزوجها وأنجبت له خمسة أمراء هم: محمد ومريم وبايزيد وجهانكير وسليم، وكانت صاحبة مؤامرات نسائية.

ثم قامت بالمؤامرات والدسائس لوصول أحد أبنائها لولاية العهد.

ومن الشخصيات الهامة في المسلسل وهو أيضاً شخصية هامة في الجزء الأول والثاني هو الوزير الأول إبراهيم باشا «إبراهيم البيرقلي» من جزيرة بيرقا اليونانية التي افتتحها العثمانيون، عمل في مزرعة لامرأة عربية اسمها أم إبراهيم وهي من أسمته إبراهيم وكانت السبب الذي جعله يدخل في الإسلام واعتنت بتعليمه فكان يتقن خمس لغات، إضافة إلى اضطلاعه بالكثير من العلوم المختلفة، التقى بالسلطان عندما كان في رحلة

صيد أيام أبيه فأعجب بإبراهيم واصطحبه معه فصار من أخلص رجاله ومن أقرب المقربين إليه.

وكان له زوجتان: الأولى: اسمها محسنة وهي من جزيرة بيرقا أنجبت له ثلاث أولاد وبنتاً، والسلطانة خديجة: الزوجة الثانية وأنجبت له ولداً (محمدا) وتوأماً ولداً وبنتاً.

ولكنه ظهر في المسلسل يعشق السلطانة خديجة أخت السلطان وقد تزوجها وعاش معها وتقلد منصب الصدر الأعظم وكان من المقربين ثم أحب إحدى العاملات في القصر جارية تعرف باسم فريال وهي إحدى الشخصيات الدرامية التي صنعتها المؤلفة وكاتبة السيناريو بديلاً عن الزوجة الأولى له والتي تدعى «محسنة» وقد راح إبراهيم باشا ضحية مؤامرات روكسلانه له وتم قتله وإعدامه بأمر السلطان.

وكان دعم إبراهيم باشا للأمير مصطفى ولي العهد أحد أسباب المؤامرات التي دبرتها له روكسلانه كي تفسح الطريق لأحد أبنائها محمد أو سليم لهذا المنصب.

وفي المسلسل جاء سبب انتقام روكسلانه منه هو مقتل الرسام «ليو» خطيب روكسلانه السابق الذي قتله إبراهيم باشا.

وهذا غير صحيح فهو لم يستخدم ورقة «ليو» ولو استخدمها لقضَى على روكسلانه نهائيًّا بتهمة الخيانة.

وتوجد روايتان لمصير الرسام «ليو» خطيب روكسلانه الأول فالرواية الأولى تقول إنه قُتِل من حرس الحرملك الذي لا يسمح لدخوله إلا للنساء، وهذا قانون ينطبق على كل من حاول انتهاك حرمته.

والرواية الأخرى تقول: إن إبراهيم باشا أعاده إلى بلده لما قبض عليه الحرس السلطاني، وقد تردد في فضح قصته حتى لا يحرج السلطان ويتسبب في حقد أبنائه الذي قد يتولى أي منهم الحكم.

وأيضاً قيل إن «ليو» كان قد قُتِل في اليوم الذي هوجمت فيها القرية على يد المغول والتتار ولم يلتقِ بروكسلانه بعدها.

وأحداث المسلسل في الغالب الأعم تدور في القصر السلطاني حيث الجواري والزوجات وحريم السلطان والأغوات والحرس والحرملك عبارة عن قرية نسائية مصغرة فيها عدد من القصور وحدائق مسورة وسوق تحضر البائعات يومياً لعرض البضاعة على السكان، إضافة إلى فيلا للسلطان تسمى (خلوة همايون) يجتمع فيها مع زوجته وجواريه.

وسكان الحرملك هن: السلطانة الأم عائشة وزوجات السلطان الأربع وجواريه وأخت السلطان وأولاده، وإدارة الحرملك من شأن واختصاص السلطانة الأم.

وهناك الموظفات الحرائر مثل الطبيبات والممرضات ومربيات الأطفال والطباخات والخادمات وهن حرائر ولهن دوام رسمي ومرتبات لما ينتهي يذهبن إلى بيوتهن ولهن مناوبات منهن من تداوم في النهار ومنهن في الليل. وأكبر وظيفة هي وصيفة السلطانة الأم التي هي «درة خاتون».

والجواري يتم إحضارهن في الفتوحات الإسلامية من البلاد الكافرة، وملك اليمين تحل للمسلم كما تحل له زوجته، وحسب قانون الحرملك: تبقى الجارية في الحرملك مدة لا تزيد عن خمس سنين، فإذا أسلمت يعتقونها ويزوجونها من رجل مسلم، وإذا بقيت على دينها يتم ترحيلها إلى بلدها أو أي مكان تريد أن تذهب إليه.

وتوجد شخصية هامة أيضاً في المسلسل هي شخصية الجارية فريال التي كانت كانت تحقد على وردة الربيع، لأنها عندما حاولت الوصول إلى قلب السلطان وتحقيق طموحاتها، أعتقتها وردة الربيع وزوجتها من موظف بسيط لا يحقق طموحاتها الكبيرة، فأقسمت على الانتقام بتحريض روكسلانه بالقيام بالمخطط الذي كانت ترسمه لنفسها.

وهناك الآغوات جمع آغا وهم العبيد التي يخضعون لعملية استئصال أعضائهم التناسلية، حتى يستطيعوا الدخول على النساء؛ ومهمتهم الأساسية هي وسيلة التواصل بين الحرس السلطاني وبين الحرملك، ولا يسمح لهم بالدخول بل لهم ثكنات للحراسة حول الحرملك وليس كما في المسلسل يدخلون على النساء كما يشاؤون، إضافة إلى ذلك يكونون مثل المخابرات للسلطان إذا حاول أحد دخول الحرملك أو تطاول أحد من الحرس على حريم السلطان.

السلطانة الأم حائط صد لكل مؤامرات هويام

من أهم شخصيات المسلسل في أجزائه الأولى شخصية السلطانة الأم حفصة (عائشة) وهي والدة السلطان وأكثر الشخصيات نفوذاً في السراي العثماني، وأكثر سيدات القصر اتصالاً بالعالم الخارجي، وكانت المتحكمة في كل أمور الحرملك وحائط صد لكل مؤامرات روكسلانه والمدافعة الأولى والحامية لإبراهيم باشا زوج ابنتها وصمام أمان للسلطان سليمان.

ويطلق على أم السلطان العثماني السلطانة الأم أو السلطانة الوالدة أو والدة سلطان، وعرفت في المصادر العثمانية باسم «مهدِ عُلياي سلطنت» أي مهد السلطنة العالي، وكان يطلق عليها في البداية اسم «خاتون» ذي الجذور السلجوقية وذلك حتى القرن السادس عشر.

لقد كانت السلطانة حفصة زوجة سليم الأول ووالدة ابنه سليمان القانوني أول أميرة عثمانية تحصل على لقب والدة السلطان وذلك في عهد ابنها، في حين لم يحصل على اللقب سوى ٢٣ سلطانة من أصل ٣٦ أم سلطان في الدولة العلية العثمانية.

وللسلطانة الأم مخصصات وإيرادات ضخمة من أراضٍ خاصة (سلطانية) ومخصصات أخرى شتوية وصيفية، إضافة إلى هدايا الدول الأجنبية ورجالات الدولة العثمانية، تقوم بالصرف منها على أعمال خيرية كثيرة.

إضافة إلى مسؤوليات القصر، وتقديم أدوار استشارية للسلطان نفسه، تنشغل والدات السلاطين ببناء الأوقاف والمشاريع الخيرية في السلطنة العثمانية والحرمين الشريفين والقدس.

وكان وجود والدة السلطان في هذا الموقع يتسم بالأهمية أحياناً، نظير العدد الكبير من الأشخاص والأنشطة التي تجري داخل القصر العثماني، واتخاذ السلطان قرارات بخصوصه قد لا تستند إلى إلمام كاف بتفاصيله الداخلية.

وقد برعت مؤلفة المسلسل في تقديم السلطانة الأم في أبهى صورة حسب السرد التاريخي لها من كتب التاريخ، وقامت الممثلة التركية بأداء دورها ببراعة ولكن الخطأ التاريخي في المسلسل مقتل إبراهيم باشا في حياتها والحقيقة التاريخية موته بعد موتها وكذلك مقتل ولي العهد مصطفى أيضاً أي أن مؤامرات هويام قد انفجرت بعد موت السلطانة الأم.



تمثال السلطانة الأم في مانسيا بتركيا.



صورة الممثلة التي قامت بدور السلطانة الأم عائشة أم السلطان سليمان في المسلسل.



صورة للسلطانة الأم حفصة أم السلطان سليمان القانوني الحقيقية.

وهناك السلطانة خديجة أخت السلطان سليمان، كان له أخوات أخريات هن بيان وفاطمة ورقية وعائشة، ظهرت فقط خديجة وبيان في المسلسل.

وإخوان السلطان كلهم توفوا قبل توليه الملك وكلهم أشقاء من أبيه وأمه ولا يوجد أحد منفي كما يقولون.

وفي المسلسل تظهر روكسلانه في البداية وهي جارية وتتذكر الهجوم على قريتها ووقوعها في الأسر وتتذكر الرسام «ليو» الخطيب والحبيب السابق لها ، ويظهر أخوها الولد الصغير وأختها الصغيرة وأبوها الراهب وأمها وكلهم قتلوا في الهجوم التتاري على القرية.

ويظهر في المسلسل شخصية أحد الأغوات وهو الأغا سمبل، وهو من الشخصيات المحورية داخل القصر.

تركزت أحداث المسلسل والذي من المفروض أن يكون سرداً تاريخيًّا لقصة حياة السلطان سليمان الأول الشهير بالقانوني أو المشرع؛ ليكون قصة درامية عن عصر الحريم السلطاني في زمن حكم السلطان سليمان وهذا من أهم عيوب المسلسل التي سلطت الضوء على الحياة الخاصة للسلطان فأظهرت بأنه زير نساء يجري وراء شهواته وأما حريمه فقد تميزت شخصية (ماهيدفران) زوجة السلطان الأولى، وأم ابنه البكر مصطفى، التي جسدتها الممثلة التركية نور أيسان فتاحاوغلو، بالخبث والذكاء إلى جانب الجمال، ولكنها لم تحسن السيطرة على غضبها وغيرتها من ضرتها الروسية (هويام) التي أحبها السلطان سليمان القانوني بجنون، حيث انهالت في إحدى المرات ضرباً على (هويام) التي استفزتها بالحديث عن النشأة الأولى لكل منهما، ولم تفهم حينها (ماهيدفران) أن تلك هي إحدى مكائد (هويام) لها، حتى تبعد السلطان عنها، وبدا حقدها على غريمتها الروسية واضحاً من خلال أسلوبها في اللكم والعض وتمزيق الثياب، الأمر الذي تسبب لـ(هويام) بالكدمات والخدوش في أنحاء جسمها.

هكذا أجاد المسلسل في تجسيد تلك الشخصية ببراعة فاقت النص التاريخي حيث

إنه بعد انتهاء هذه المعركة النسائية عادت (ماهيدفران) مسرعة إلى جناحها حتى تحتفل بانتصارها، بينما عادت (هويام) سعيدة بما تحمله من آثار العدوان، واحتجبت عن السلطان على غير عادتها، ما أشعره بالقلق عليها، وبعد أن رفضت الاستدعاء السلطاني أكثر من مرة، أرسلت له رسالة شفهية تقول إنها غير جديرة بالظهور أمامه لأنها كما قالت زوجته الأولى (لحم يباع ويشترى) الأمر الذي أثار غضب السلطان وانتهى بإقصاء السيدة الأولى وأم ولي العهد عن موقعها الرسمي.

وبالتالي وصلت هويام «روكسلانه» إلى أهم أغراضها السياسية والاجتماعية.

هويام ومحاولات اغتيال الأمير مصطفى

أظهر المسلسل محاولات هويام «روكسلانه» لاغتيال الأمير مصطفى وأهمها أنها حاولت قتله بالسم بواسطة الجارية فتون التي أرسلتها للإيقاع بمصطفى فأحبها وأحبته ولم تقدر على قتله بالسم وتم إنقاذه كما حدث مع أمه أيضاً ولكن المفاجأة أن تتطور العلاقة بين الأمير مصطفى وتلك الجارية إلى أن تحمل منه.

وحين تعلم هويام بأن الجارية فتون وحملها من الأمير ولي العهد تقرر التخلص منها حتى لايكون للأمير ذرية، وتصبح الجارية المسكينة إحدى ضحايا روكسلانه وحين يتم تنفيذ أمرها بقتل الجارية، تصرخ وتتوسل لهم ليرحموها هى وطفلها المسكين.

لكن الأوامر صارمة غير قابلة للرحمة والشفقة.

ظلت تصرخ فتون بألم وحسرة إلى أن عجزت الطبيبة من وقف نزيفها، ثم يظهر الأمير مصطفى ويقوم بنقل حبيبته إلى جناحه مستدعياً الأطباء لها لكن «فتون» كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة وكان آخر كلامها للأمير:

- تلقيت أمراً بقتلك يا أميري بواسطة السلطانة هويام ولم أقدر على استكمال المهمة فحبك سيطر على قلبى، احذر منها يا حبيبى فهى لن تتهاون في إعادة محاولة قتلك واغفر لى ضعفي وجبني وتأكد من حبي الشديد لك...

لاتحاول نسيانى أبدا وتذكر تلك الجارية التى أحبتك بجنون وخسرت حياتها بسبب ذلك الحب المستحيل.

وهكذا خسر حبيبة قلبه والجنين واكتشف مخطط قتله من السلطانة «هويام».

ومع التطور الطبيعي للدراما التاريخية للمسلسل قامت روكسلانه «هويام» بمؤامرة للتخلص من مصطفى بالتعاون مع صهرها رستم باشا زوج ابنتها مريم، إذ انتهز سفر مصطفى في إحدى الحملات العسكرية إلى بلاد فارس، وأخبر السلطان أنّ ابنه يريد أن يثور عليه فغضب السلطان وتوجه إلى معسكر الجيش في بلاد فارس متظاهراً بقيادة الجيش بنفسه، واستدعى ابنه إلى خيمته وقتله فور دخوله عليه. واستتبع مقتله موت أخيه جهانكير من شدة الحزن وعرف بشهيد الأخوة كما ذكرنا من قبل.

اللافت أنّ السلطانات الثلاث هويام ناهد، دوران وخديجة كانت نهايتهن مأساوية، بعد إعدام ابنها مصطفى، ترفض أن تسكن في قصور آل عثمان القديمة، وتسكن إلى جانب قبر ابنها وتعيش حياة الفقر والذلّ، حتى إنّ الناس يتصدقون عليها، ويصل أمرها في عهد السلطان سليم ابن هويام، إلى أنه يأمر بصرف راتب لها حتى وفاتها.

أما السلطانة خديجة شقيقة السلطان سليمان التي تجسّدها الممثلة «سلمى ارجنج»، فهي الأخرى نهايتها مأساوية، بعدما أعدم السلطان سليمان زوجها إبراهيم باشا، نشب صراع بينها وبينه، فأمر بنفيها إلى بورصة ولم يعرف أحد عنها شيئاً، ويقال إنّها انتحرت لأنها ماتت بعد سنتين فقط من إعدام إبراهيم باشا، وبقي موتها غامضاً ولم يعرف ما إذا كانت قد قتلت أم انتحرت!!

وأيضاً هويام كانت نهايتها مأساوية بعد وفاة اثنين من أبنائها حيث عاشت حالة حزن شديد وأصيبت بحمى الكوليرا ونقلت إلى «لادرنة» حيث ماتت عن ٥٢ عاماً. وقيل أيضاً أنها ماتت مسمومة بواسطة أعدائها بالقصر السلطاني حتى قيل إن السلطان نفسه قد تخلص منها لكثرة مؤامراتها وإدراكه لخطورتها في نهاية الأمر كما ذكرنا من قبل أيضاً.

عدم رضاء الأتراك عن المسلسل

بالرغم من كل النجاحات الجماهيرية التي حققها المسلسل، وبالرغم أيضاً من تحطيمه الأرقام القياسية في عدد المشاهدين. فإن المسلسل التركي حريم السلطان واجه انتقادات عدة، مثيرا في الوقت ذاته عاصفة من النقاشات والسجالات، أنه تلقى أكثر من ٧٥ ألف شكوى، بسبب ما وصف بأنه «تلاعب بالحقائق التاريخية» ألف شكوى لإيقاف المسلسل الأضخم في تاريخ الدراما التركية وأضاف أنه ركز على جانب الحياة الاجتماعية فقط للسلطان سليمان القانوني، دون التطرق إلى حياته السياسية كإنجازاته وفتوحاته. وحتى الجانب الاجتماعي فقد تم بيانه بصورة سلبية، فقد أظهر السلطان سليمان على أنه «عربيد» يحتسي الخمر ويغازل النساء.

وقد اتهم رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان المسلسل بمحاولة عرض الجانب السلبى لتاريخ تركيا للجيل الشاب، ومن جانب آخر فقد رأى المشاهد العربي بأنه كان «مخدوعا» بعد اكتشافه من خلال مسلسل حريم السلطان كيف تكون المسلسلات التاريخية. ظهر مسلسل حريم السلطان الذي ظهر في حلة جديدة وفرض نفسه بطريقة إخراجه المعتمدة على دقة التفاصيل، والتقنية العالية المحترفة في التصوير، وأداء الممثلين الواثق، وعناصر الإبهار في حركة الكاميرا وزواياها التي تجبر المشاهد على ملاحقة المشهد، وغير ذلك من الأدوات الفنية التي دفعت المشاهد العربي لمتابعته والإعجاب به، ويطالب بمسلسلات تاريخية ذات جودة عالية مثل هذا المسلسل ولم ير

الجانب السلبي في السرد التاريخي الحقيقي. [١]

ويرى بعض المنتقدين للمسلسل «حريم السلطان» أن كاتبة القصة والمسلسل «ميرال أوكاي»، التي ولدت في أنقرة سنة ١٩٥٩، أنها قد حرقت شخصية روسكلانه أم السلطان سليم الثاني، التي ظهرت في المسلسل بشكل غير لائق بها ولا يمت إلى تاريخها ولا حقيقتها بصلة، ولكن السيناريست «أوكاي» أخذت ما كتبه الأعداء عنها ولم يكتبه أحد من مؤرخي الدولة العثمانية فنسجت من خيالها هذا الدور الفظيع، والحقيقة أن معظم الذين كتبوا تاريخ الدولة العثمانية قديماً وحديثاً لم يختلفوا حول دور روكسلانه التآمري الذي أوصل الدولة العثمانية إلى الانحطاط فيما بعد حتى إن بعضهم ظن أنها يهودية.

فالمسلسل في حقيقته مزيج من التاريخ والحبكة الدرامية بدليل وجود شخصيات من إبداع الكاتبة ولا وجود لها مثل الأميرة إيزابيل وقصتها مع السلطان.

فالسلطان سليمان هو أحد أهم سلاطين الدولة العثمانية، فهو الذي قام بتوسيع حدودها إلى أبعد مدى وقام بوضع القانون الأساسي ليكون أول دستور للدولة العثمانية وفتح بلاد المجر وبلغراد ورودس وحارب النمسا والبرتغال وإيران وأقام تحالفا مع الفرنسيين وكان سببا في تطور البحرية العثمانية وأرسى قواعد الجيش العثماني وكان في نفس الوقت شاعرا وخطاطا وكان له باع كبير في تطوير العمارة في الدولة العثمانية كما أقام العديد من المدن التي حملت اسمه، وكان دور الحريم السلطاني في حياته مثل الملوك الآخرين في كل العصور وكانت حياته مليئة بالأحداث الدرامية التي تستحق الدراسة.

ومن أهم الأحداث التاريخية التي تعرض لها المسلسل مؤامرة روكسلانه للتخلص من الأمير مصطفى ولي العهد بعد التخلص من إبراهيم باشا فكانت تريد أن تمهد لأحد

---

١ - كاتبة السيناريو والحوار والقصة لمسلسل القرن العظيم الذي عرف باسم «حريم السلطان» هي «ميدال أولكاس» المتوفية عام ٢٠١٢م بعد عرض المسلسل ولدت في أنقرة التركية عام ١٩٥٩م.

أبنائها أن يتولى العرش بعد أبيه رغم وجود ابنين أكبر من ابنائها للسلطان من زوجته الأولى، فاشتغلت بالدسائس وساعدها الصدر الأعظم رستم باشا على ذلك.

كما ذكرنا فقدت روكسلانه أحد أبنائها وانكوت بنار مؤامراتها حيث إن ابنها «جهانكير» أو «الأمير الأحدب» مات والذي كان يحب أخاه مصطفى الذي أولاه رعايته واهتم به وأحبه.

ولكن مسلسل قتل الأبناء للسلطان سليمان لم يتوقف، فبعد وفاة روكسلانه أراد سليم ابنها الأصغر أن يكيد لأخيه الأكبر بايزيد، فتمكن من استئجار مربي بايزيد وجعله يسرب له معلومات خاطئة تفيد نية أبيه تولية ابنه الأصغر السلطنة، وجعله يتبادل مراسلات مع سليم عن هذا الموضوع في إحداها مس بايزيد بكرامة أبيهما، فأرسل سليم الكتاب إلى الخليفة سليمان الذي غضب غضبا شديدا وكتب إلى بايزيد يوبخه ويأمره بالانتقال من إمارته في قونية إلى مدينة أماسيا، فخشي بايزيد غدر أبيه فجمع قرابة عشرين ألفا من الجنود وآثر التمرد على أبيه، إلا أن سليمان استطاع إخماد التمرد وأرسل من قتل ابنه وأحفاده الأربعة الذين لجأوا إلى إمبراطور الفرس الأمبراطور الصفوي الذي سلم بايزيد لرجال السلطان الذين قاموا بقتله وأولاده كما ذكرنا من قبل.

وقد شهدت روكسلانه بداية صراع بايزيد مع أخيه سليم والسلطان وحاولت منع قتل ابنها بايزيد ولكنها لم تفلح وهذا يؤكد أن سيطرتها على السلطان في أواخر حياته لم تكن كاملة كما يظن البعض فقد أصر السلطان على قتل ابنه بايزيد أسوة بما فعله مع ابنه الآخر مصطفى، فحزنت روكسلانه على موت ابنها جهانكير «جهاد» وكذلك مقتل بايزيد المتوقع، فماتت حزناً وكمداً قبل مقتله.

لقد كان غضب رئيس الوزراء التركي أردوغان حين غضب من مسلسل «حريم السلطان»، لأسباب تاريخية محضة، لا علاقة لها بالدين ولا بالأخلاق.

ومما يعيب المسلسل أنه أظهر حريم السلطان زوجاته وجواريه وحتى أمه السلطانة

بصور عارية مغرية تظهر أمام المحارم وغيرهم وهذا مخالف للواقع التاريخي الذي يشير إلى تدين السلاطين العثمانيين وهذا واضح مما عرض عنهم من رسومات ولوحات لشخصهم وأوردناها في الكتاب.

فقد كانت ملابس حريم السلطان وجواريه في المسلسل تكشف عن مفاتنهن وعوراتهن بشكل مقزز، حيث إن المخرج أراد إظهارهن مثل أميرات الغرب في ذلك الزمان.

نماذج من أهم أحداث المسلسل الدرامية

قتل إبراهيم باشا لبسام باشا من مؤامرات القصر:

من الصراعات التي ذكرها المسلسل الصراع بين إبراهيم باشا وروكسلانه وأعوانها في القصر ومنهم رستم باشا وبسام باشا.

وكان رجال بسام باشا يحيطون به دوماً، بل وتطور الأمر إلى تهديده لإبراهيم باشا.

إما أن يقوم بتعيينه بوظيفة أو يخبر السلطان سليمان القانوني بعلاقة إبراهيم باشا مع الجارية فريال ومعه دليل على صدق كلامه وهي طابة بيت فريال.

وأصبح التخلص من بسام أمراً حيويًّا لإبراهيم باشا حتى يتخلص من خطره ولهذا لجأ إبراهيم إلى أسلوب القتل المتبع لديه لتخلص من أعدائه فقد أمر بتسميم شراب بسام باشا وهو مع إحدى الجوارى، لكن بسام نجح في النجاة من الموت وقام بمقابلة السلطان سليمان، ولأن إبراهيم خائف من افتضاح أمره فقد صمم على الانضمام إليهما.

أبلغ بسام السلطان سليمان بأن إبراهيم باشا قام بإرجاعه إلى وظيفته السابقة ولم يستطع إبراهيم باشا إنكار الأمر بل أكد على صحة كلام بسام باشا لكن السلطان سليمان داخله الشك فيها من الحوار بين كل من إبراهيم وبسام، فطالب السلطان من إبراهيم باشا تفسيراً واضحاً عما يجري، فقال له: يا إبراهيم كيف تقوم بتعيين بساماً وهو يكن له

كل الكره كما أنه أحد المشتبهين في محاولة قتلي.

فكان رد إبراهيم باشا سريعاً:

- أردت يا مولاي كشف الجماعة التي يستخدمها بسام باشا وتقف وراءه وتحاول قتلك، لذلك أعدت بسام إلى وظيفته السابقة حتى يقوم بكشف من خلفه.

مرَّ الأمر بسلام لكن إبراهيم أسرع في التخلص من عدوه فيقوم بالهجوم هو وأتباعه على غرفة بسام باشا ويقوم بقتله بنفسه وكل من كان معه من الأتباع وبذلك أخفى علاقته بفريال إحدى موظفات القصر والتي كانت جارية من قبل وأحبت إبراهيم باشا وعشقته.

الأميرة إيزابيل شخصية تاريخية حقيقية لكنها لم تعاصر سليمان

من أخطاء المسلسل التاريخية أن المؤلفة جلبت شخصية تاريخية حقيقية ولكنها لم تعاصر السلطان سليمان لتجعل لها دوراً في حياة السلطان النسائية دون أي مبرر سوى الدراما وتشويه صورة السلطان.

فالأميرة إيزابيل شخصية تاريخية حقيقية، لكن إيزابيل فورتونا الحقيقية توفيت قبل أن يتسلم السلطان سليمان الحكم بثلاثين سنة، والأميرة التي عرفناها في المسلسل هي بالفعل ملكة هنغاريا إيزابيل جاغليون!.

ففي الحقيقية التاريخية كانت هناك شخصية تدعى إيزابيلا زوجة ملك المجر المتحالف مع سليمان وحين مات زوجها ١٥٤٠م وأراد ملك النمسا الاستيلاء على المجر قام سليمان بمساعدة إيزابيلا على تولية ابنها الطفل سيجسموند ملكاً على المجر تحت وصايتها ولم يكن هناك أي علاقة عاطفية بين تلك الملكة إيزابيلا والسلطان سليمان وبالتالي فإن شخصية الأميرة إيزابيلا فورون في المسلسل من نسج خيال الكاتبة وليس لها أي مبرر درامي سوى تشويه صورة السلطان.

لقد اهتم المسلسل بالجوانب العاطفية والغرامية للقصر السلطاني فنجد قصة حب وغرام بين إبراهيم باشا وفريال وإبراهيم باشا وخديجة والسلطان سليمان وروكسلانه والسلطان وإيزابيلا وبالي بك والفتاة اليهودية ثم خطيبة الأمير مصطفى وكذلك الأمير

مصطفى وجارية وهكذا تم تصوير القصر العثماني.

يبدأ الجزء الثاني من لقطة محاولة الجارية الجاسوسة صادقة قتل السلطان سليمان في قصر إبراهيم باشا، ولكن يستطيع إنقاذ نفسه عندما يُوقِع بـ «صادقة» ويعرف أنها جاسوسة تريد قتله وهنا يجري إبراهيم باشا إلى السلطان عندما يسمع صوت السلطان عالياً.

ويعنف السلطان إبراهيم لأنه هو من جلب صادقة إلى الحرملك، ويغرس السكين التي كانت صادقة تريد قتل السلطان بها في الشجرة بعد أن يتمالك أعصابه لأنه كان يريد قتل إبراهيم، وهنا يقع إبراهيم في ذهول من هول الصدمة.

في تلك الأحداث يكون الرسام «ليو» أكل من الحلوى ليفدي «هيام» ويموت في الحال تحت صرخات وبكاء هيام، وفي ظل ما حدث تستطيع هيام الخروج من دون أن يهددها إبراهيم الذي كان مصدوماً مما حدث. وتتوعد هيام إبراهيم لأنها تريد الانتقام منه، وتتوالى الأحداث.

بعد قتل الجارية «صادقة» يمرض صدوق أفندي لأنه كان يحب الجارية، ويتزوج من الجارية فريال التي تعشق إبراهيم باشا، ولكنها لا تستطيع نسيان إبراهيم وتظل تحاول معه كي يحبها إلى أن تنجح في مرادها وتوقع إبراهيم في شباكها.

وفي المسلسل يحب إبراهيم باشا ويخون السلطانة خديجة حبيبته ويبرر ما حدث بأنه نزوة لكن لا يستطيع البعد عن فريال ويظل يحبها إلى أن يموت. هنا يكتشف أهل المدينة أن فريال تخون زوجها نصوح أفندي ويبدأون في معايرته بما يحدث وأنه رجل ديوث.



صورة للأميرة إيزابيل الحقيقية التي لم تعاصر السلطان سليمان أصلاً.



الممثلة التي قامت بتجسيد دور الأميرة إيزابيل في مسلسل حريم السلطان وهي شخصية أضافتها المؤلفة لقصة السلطان سليمان القانوني ولم تكن معاصرة له في الحقيقة.

محاولات روكسلانه قتل الأمير مصطفى في المسلسل

بعد صراع عنيف بين الزوجة الأولى ناهد دوران والثانية هويام ومحاولة ناهد دوران الكيد لهويام ثم إجبارها الاعتذار لها تقوم هويام بالكيد لناهد دوران وابنها مصطفى فهي لم تنسَ ما فعلته بها ناهد لذا اتفقت مع نفس الجارية التي آذتها كي توقع الأمير مصطفى في حبها، وبالفعل يكون لها ما أرادت وتبدأ في تنفيذ مخططها وتضع الجارية السم في طعام الأمير مصطفى ويكاد أن يموت لولا أن الأطباء نجحوا في علاجه لكنهم لم يكتشفوا من فعل به ذلك.

ويظل الأمير يحب تلك الجارية التي كانت تشك فيها السلطانة ناهد وتحاول أن تبعدها عن طريق ابنها، لكن الجارية تحمل من الأمير وعندما يعلمون بالأمر يأخذون الجارية ويجهضونها من الحمل ولكن الأمير يسمعها فيدخل عليهم ويأخذها ولكنها تكون في لحظاتها الأخيرة.

وهنا تعترف بخطط هيام لقتل الأمير، ويذهب الأمير إلى هيام ويهددها ويقول لوالده الذي يغضب بشدة ويذهب إلى هيام لينتقم منها لكنها تسيطر عليه وتكذب الأمير مصطفى وتقنعه بالفعل بكذبها.

في ظل الخلافات الكثيرة بين السلطان والسلطانة ناهد يشعر الأمير مصطفى بظلم والده لوالدته خاصة بعدما دخلت ناهد جناح هيام لتحاول منعها من أذية مصطفى،

وتقول هيام إنها ستبعده عن العرش.

وتحاول ناهد صفعها لكن السلطان يدخل في تلك الأثناء ويوبخ ناهد ويجبرها على الاعتذار لهيام، وبالفعل تعتذر لها وتترك الجناح وتذهب إلى غرفتها وهي تبكي بحرقة، ليدخل الأمير مصطفى وتروي له والدته ما حدث ليذهب إلى والده ويقول له إنه ظالم وتبدأ مشاكله مع والده.

ويمتنع مصطفى من التواجد في أي مكان يتواجد به السلطان، إلا أن إبراهيم باشا ينجح في عودة المياه إلى مجاريها بين السلطان وابنه وهو ما فشلت فيه السلطانة الأم والسلطانة ناهد دوران، وهذا ما جعل هويام تكيد المؤامرات للتخلص من إبراهيم باشا نفسه، حتى تستطيع التخلص من الأمير مصطفى، وهذا ما نجحت فيه آخر الأمر.

مقتل إبراهيم باشا في المسلسل من فعل مكائد ومؤامرات هويام «روكسلانه»

بعد زواج هيام من السلطان بشكل رسمي تبدأ في خطة للتخلص من إبراهيم باشا عدوها الأكبر، وما ساعدها على تنفيذ خطتها هو وقوع إبراهيم في غرام الجارية فريال ووجود علاقة بينهما وبالتالي خيانته للسلطانة خديجة زوجته وحبيبته، وأم ابنه وابنته التوأم التي ستنجبهما في منتصف الجزء الثاني من المسلسل.

إلى جانب تلقيه هدايا قيمة، ممن كانوا يسعون إلى تولي الوظائف، ورغم عدم تردده في قبول الهدايا، إلا أنه كان يقوم بمهامه وبمسؤولياته بكفاءة نادرة سواء في ميادين القتال أو في الحياة السياسية.

ولكن غرور إبراهيم مع مرور الأيام سيظهر وذلك أثناء حفل أقيم لبعض المبعوثين الأجانب فقال إبراهيم: «إنني أنا الذي أحكم هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف، أنا أوامري تنفذ، وفي يدي جميع الصلاحيات، كل ما أمنحه وأتعهده لا يمكن الرجوع عنه، وما لا أمنحه لا يمكن لأي شخص أن يبرمه، إن أوامر السلطان لا تنفذ إلا إذا كانت تتمشى مع رغباتي ففي يدي كل شيء: السلم - الحرب- المال. إنني لا أقول كلامي هذا بدون مبرر، بل لأشجعكم على الكلام بحرية.

وهنا بدأت «هيام» دعم معارضي إبراهيم فتحالفت مع إسكندر جلبي وهو من أكبر منافسي إبراهيم باشا. وأخيراً بدأت في التأثير على السلطان الذي وصلته الوشايات، بأن

إبراهيم يسلبه سلطته، ونجحت في ذلك ببراعة وساعدها ما كان يهمس به الكثيرون من مقربي السلطان ووقع سليمان في حيرة، ما بين فاتنته وصديقه إبراهيم الذي لم يخنه قط، وأخيراً استسلم لضغوط «هيام» خاصة عندما استشهدت بما قاله إبراهيم أمام السفراء بعد إحدى المعارك في العراق كما ذكرنا ذلك من قبل.

الأمر الذي أقنع سليمان بأن إبراهيم يشكل خطراً على سلطته فقرر التخلص منه.

وفي أحد الأيام توجه إبراهيم لتناول طعام العشاء مع السلطان، الذي طلب منه أن يبيت بالغرفة المجاورة، وفي تلك الليلة اصدر أمراً بقتله، وقد كان آخر من ودعه هي عشيقته فريال.

بعد مقتل إبراهيم باشا تولّى مهمته ثلاثة من الرجال الذين لم يشهد لهم بالكفاءة، فنجحت «هيام» في التحكم والاستيلاء على الصدارة من خلال تنصيب رستم باشا زوج ابنتها مكان إبراهيم باشا.

وبدأت هيام في خطتها التالية للتخلص من مصطفى الوريث الأول للحكم، كي يتمكن ابنها البكر سليم الثاني من الحكم، وتعاونت مع رستم باشا في رسم الخطط والمكائد للتخلص من مصطفى، خاصة أن مصطفى كان محبوباً وعلى درجة كبيرة من الكفاءة، خاصة بين القوات المسلحة.

ولم يكن أحد يشكك في انه سيخلف والده الذي بلغ حينها الستين، وتمهيداً للتخلص من مصطفى اشترك رستم مع «هيام» في إثارة حملة تشكيك ضد مصطفى فكانت المؤامرة مشابهة طبق الأصل، من تلك التي أدت إلى مصرع إبراهيم باشا.

ومن أخطاء المسلسل التاريخية أن يكون قتل إبراهيم باشا قبل وفاة السلطانة الأم عائشة والحقيقة التاريخية أنه قتل بعد وفاتها حيث إنها كانت الحامية المدافعة الأولى عنه وكانت وفاة السلطانة الأم بداية لمقتل إبراهيم باشا ثم مصطفى باشا ثم وفاة جهانكير ثم بايزيد ومن قبلهم الأمير محمد.

قامت روكسلانه بعد مقتل إبراهيم باشا المساند الأول للأمير مصطفى بالتدبير

للتخلص من مصطفى هي وزوج ابنتها الصدر الأعظم رستم باشا، حيث روجا شائعة تحالف مصطفى مع خيالة الأناضول وقبائل التركمان وقطاع الطرق، بهدف الثورة على والده السلطان وقلب الحكم عليه، وقد زور رستم خطاباً بتوقيع مصطفى وأرسله إلى السلطان وتأكد السلطان من خيانة ابنه.

وهو ما دعاه إلى استدعائه حيث كان ينتظره خمسة من الجلادين الصم البكم، الذين كان يعهد لأمثالهم بشنق ذوي المكانة الرفيعة، وراقب سليمان من وراء ستار قتل ابنه المحبوب، وحين انتهى كل شيء برز إلى العيان دون أن تبدو عليه أي علامة من علامات الشفقة أو الندم.

وتظاهر سليمان بأنه لم يقتل ابنه، وهنا تنهار والدته وتنتهي حياتها بالوفاة. ولم تكتف هيام بذلك بل أرسلت من قتل طفل مصطفى الرضيع لينقطع أثره ولا يطالب منهم أحد بعد بالملك.

في النهاية تتوفى «هيام» بعد خمس سنوات من مقتل الأمير مصطفى، ولكن بعد أن حققت طموحاتها في تولي ابنها الأمير سليم ولاية العرش، وشيئاً فشيئاً يكتشف سليمان أنه قتل أعز أصدقائه وابنه الطيب وهنا يصاب باكتئاب حاد يموت على إثره، وهكذا ينتهي مسلسل القرن العظيم أو حريم السلطان.

والسلطان سليمان بعد مقتل إبراهيم ومصطفى وبايزيد ووفاة محمد وجيهانكير، أصيب بالكآبة وبقي ست سنوات على فراش المرض حتى وافته المنية.

وعلى الرغم من أخطائه في حق أسرته فقد كان عهده عزًّا للإسلام فقد رُفعت رايتُه في أوربا كلها فمنهم من دخل الطاعة ومنهم من دفع الجزية، ولم تستطع روسيا وفرنسا وبريطانيا من هزيمة العثمانيين في عهد سليمان ولو مرة واحدة، كان دائماً يسحقهم سحقاً من معارك كثيرة دونها التاريخ بسطور من فخر ونور.

أما السلطانة ناهد دوران أو جلبهار أو ماه دوران فقد بقيت تربي بناتها وبنت مصطفى، وقد انتقلت للعيش معها محسنة صديقتها وأرملة إبراهيم باشا.

ولما استلم السلطان سليم الثاني دعاها إلى القصر واكرمها، وطلب منها أن تعيش معه وتكون السلطانة الأم.

قالت: إن في كل شبر وممر في هذا القصر صورةً أو ذكرى لابني مصطفى، أنا لا أستطيع أن أعيش هنا من دونه !!

وبناء على رغبتها جهز لها السلطان سليم قصرا في نفس المدينة التي دفن فيها مصطفى ابن سليمان.

فقد كان مصطفى بالنسبة لها كل شيء، كانت كل يوم تذهب إلى القبر وتتكلم معه كأنه حي، وتكثر من الدعاء له والتصدق عنه ولما حضرتها الوفاة أوصت أن يدفنوها بجانبه.

وحين رفضت خديجة منصب السلطانة الأم تولت مريم هذا المنصب وبقيت بجانب أخيها السلطان سليم الثاني حتى وفاتها.

وأما السلطان سليم الثاني فقام بتعيين أحمد باشا الصقلي بمنصب الوزير الأعظم وترك له إدارة شؤون البلاد.

وكان أحمد باشا رجل دولة قديراً تمكن من افتتاح جنوب فرنسا وإمارة موناكو، إضافة إلى جزيرة قبرص، وقام برفع مخصصات المواطنين في الدولة ودعم الأيتام والأرامل والفقراء وطلبة العلم، وكان مثالاً لمن يستلم الأمانة ويؤديها كأكمل وجه - رحمه الله تعالى.

كلمة أخيرة
لماذا شوه الأوربيون تاريخ السلطان سليمان؟

وبعد فقد استعراضنا قصة أعظم السلاطين من آل عثمان وفتوحاته في كتاب سابق وهنا نستعرض قصر السلطان أو بمعنى أدق الحرملك وما جرى فيه من مؤامرات وقصص نسائية وأشهر قصة حب وغرام بين السلطان وإحدى جواريه والتي أنجبت له أولاده الذكور ومنهم السلطان سليم الثاني الذي ورث العرش بعد السلطان سليمان القانوني أبيه.

وقد جاء مسلسل القرن العظيم المعروف باسم «حريم السلطان» ليقدم لنا السلطان سليمان القانوني ليس كغازٍ وفاتح وتلك حقيقته وإنما قدمه كرجل ليس له همٌّ إلا النساء الجواري مما أثار غضب الشعب التركي وطالبوا بوقف عرض هذا المسلسل.

التاريخ الإسلامي قد تعرض عبر مراحله لحملات عاتية من التشويه والتزييف لأهداف سياسية أو مذهبية، ولكنّ في كل مراحله كان التشويه والتحريف يتم بأيدي تنتسب للإسلام بصورة من الصور في كثير من الأحيان.

لكن التاريخ العثماني فقد نال هذا التاريخ حظه الأوفر من التشويه على يد الأوربيين الذين يحملون قدرًا مهولاً من الحقد والعداء للدولة العثمانية التي أذاقت أوروبا والأوربيين طعم الهزيمة والذل والانكسار لقرون، مما جعل الأوربيين يجتهدون أيما اجتهاد من أجل تشويه تاريخ الدولة العثمانية العلية، وسجلوا عن العثمانيين كل سلبية،

وجالت بها أقلامهم، وحلقت بها أفكارهم، وتجاهلوا كل إيجابية، ونظروا إلى تاريخ العثمانيين بعين البغض فقط وأظهروا أموراً قد تكون شائعة في كل القصور الملكية في أوروبا وسلطوا عليها الأضواء.

فالذاكرة الأوروبية لم تنس يومًا ما قام بها العثمانيون في القارة الأوروبية، لم ينس الأوروبيون أبدًا فتح القسطنطينية عاصمة العالم النصراني وقتها سنة ٨٥٧هـ على يد محمد الفاتح وتحويل كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد، في أكبر إشارة على ظفر الإسلام على النصرانية، وكيف أن العثمانيين قد وسعوا رقعة الأراضي الإسلامية لتشمل معظم يوغسلافيا والمجر وبولندا ونصف روسيا وبلغاريا ومقدونيا ورومانيا واليونان وامتدت ولاياتها عبر ثلاث قارات.

فالذاكرة الأوروبية لم تنس كيف وقف العثمانيون في وجه الصليبيين على مختلف الجهات، فقد هاجموا شرق أوروبا لتخفيف الضغط الواقع على مسلمي الأندلس، وواجهوا البرتغاليين في جنوب الخليج العربي، وواجهوا الإسبان في شمال أفريقيا وسواحل البحر المتوسط، وواجهوا الروس القياصرة في وسط آسيا، وواجهوا البرتغاليين في شرق أفريقيا. ولم يستطع الأوربيون احتلال المنطقة الإسلامية إلا قبيل سقوط الدولة العثمانية، في حين أن البلاد التي لم تخضع للدولة العثمانية مثل الهند وأندونيسيا وماليزيا وقعت مبكرًا بيد الاحتلال الأوروبي وعانت منه لما بعد الحرب العالمية الثانية.

وكذلك لم ينس الأوربيون أن العثمانيين قد قاموا بنشر الإسلام في العديد من أجزاء أوروبا، وأن مسلمي أوروبا عامة وشرقها خاصة يدين بالفضل للدولة العثمانية في دخول الإسلام، حتى أصبح للمسلمين جاليات كبرى في أوروبا، كانت مجهولة لكثير من المسلمين حتى وقعت مجازر البوسنة والهرسك في أواسط التسعينيات.

لم ينس الأوروبيون معركة «كوسوفو» و «موهاكس» وحصار فيينا وبلجراد وغيرهما من المعارك الهامة.

لم ينس الأوربيون كيف أن العثمانيين قد أخذوا الأطفال اليتامى من البلاد المفتوحة

في أوروبا وربوهم تربية إسلامية خالصة وشكلوا بهم فرق «الإنكشارية».

وما زال الحقد الأوربي على الدولة التركية حتى الآن يرفض انضمامها للاتحاد الأوربي رغم أنها أصبحت دولة علمانية منذ ١٩٢٤م.

إنهم ما زالوا يعتبرون العثمانيين المسلمين الخصم التاريخي اللدود الذي لا تنمحي عداوته ولا تفنى كراهيته، لذلك فهم لا يدخرون وسعًا في قطع الطريق على أي فكرة أو مشروع للحديث عن أمجاد الدولة العثمانية وتذكير الناس بمآثرها.

ومن هنا جاء المسلسل التركي عن سيرة السلطان سليمان بالذات تشويهاً لهذا السلطان العظيم بإنجازاته وفتوحاته حيث يعتبر عصره ذِروة النفوذ والاتساع والقوة في الدولة العثمانية، فقد كانت الدولة في أقصى اتساعها الجغرافي ونفوذها السياسي وتقدمها العلمي واستقرارها الاجتماعي وثباتها المؤسسي وثرائها الاقتصادي وتفوقها العسكري وذكائها الدبلوماسي، حتى إن الأوروبيين قد أطلقوا على سليمان لقب «الفخم»، وهو السلطان العثماني الوحيد الذي قهر الإمبراطور شارلكان عاهل الإمبراطورية الرومانية الشهيرة، وحاصر عاصمته فيينا وكاد أن يفتحها.

لقد أظهرت كاتبة المسلسل الدولة العثمانية على أسوأ مثال وبأسوأ صورة، بصورة الدولة التي ينغمس سلطانها ووزراؤه وقادة دولته في الخمر والنساء والحريم، وهي نفس الصورة المترسخة في العقلية الأوروبية عن المسلم عامة والمسلم العثماني خاصة، صورة الرجل الذي لا يفكر إلا في شهوته وملذاته، صورة السلطان العثماني في العقلية والثقافة الأوروبية ليس له هدف سوى الجلوس مع الحريم والتنقل بين أجساد الجواري والاستماع لنميمة هذه وتلك، على الرغم من أن السلطان سليمان ظل في جهاد مستمر على عدة جبهات لأكثر من ثلاثين سنة، ولم يعرف الراحة إلا في أواخر أيامه بعد أن تقدمت به السن.

ومات وهو يغزو ويقاتل ويفتح الحصون وقد تجاوز عمره السبعين عاماً ولم يمنعه مرضه من الخروج وقيادة الجيش.

ولعلنا قد قدمنا عرضاً غير مخلٍّ بقصة الحب الأسطوري الذي جمعت بين السلطان سليمان وجاريته الأوكرانية روكسلانه وإن كنت أراها قصة حب عادية وليست أسطورية، لكن الأحداث التي عاصرت تلك القصة من مؤامرات واغتيالات جعلتها قصة أسطورية والحقيقة الحب لا يعرف العنف والقتل والمكائد فهو عاطفة جياشة عذبة صافية ترتقي بصاحبها بعكس ما فعلته روكسلانه بطلة حريم السلطان.

* * *

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن نكون قد وفقنا إلى إخراج هذا على الوجه الذي يرضيه عنا ويتقبله منا إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا.

المؤلف



(ميدال أولكاس)
مؤلفة مسلسل القرن العظيم
(حريم السلطان)
١٩٥٩م - ٢٠١٢م



الممثل الذي قام بدور السلطان سليمان   صورة للسلطان سليمان القانوني في شبابه



لوحة زيتية للسلطانة روكسلانه (هويام)





صور تقارن بين السلطان سليمان الحقيقي والممثل الذي قام بالدور في مسلسل حريم السلطان.



لوحة زيتية تتخيل السلطانة ناهد دوران وهي جالسة في القصر.





صور من داخل القصر السلطاني الذي عاش فيه السلطان سليمان.



من داخل القصر السلطاني.



صورة السلطان سليمان في الشيخوخة.



صورة ماه دوران السلطانة والزوجة الأولى للسلطان.



مقارنة بين الممثلة التي جسدت دور هويام أو خُرم (روكسلانه) وبين صورتها الحقيقية.



صورة للممثلة التي جسدت دور هويام في المسلسل ولوحة تصور هويام للمقارنة.



صورة حقيقية للسلطان سليمان والسلطانة روكسلانه.



صورة الأمير بايزيد بن سليمان في المسلسل (حريم السلطان) وهو صغير وهو شاب والأمير بايزيد من روكسلانه وقتل مع أولاده الصغار نتيجة مؤامرة شقيقه الأمير سليم وقد توفيت روكسلانه بعد أن فشلت في محاولة منع ذلك.



صورة الأميرة مريم «مريميا» أو محريمة في مسلسل حريم السلطان وهي طفلة وصورة الممثلة التي أدت الدور في المسلسل وهي بنت السلطان من روكسلانه.



صورة الأمير محمد وهو صغير وشاب في المسلسل التركي حريم السلطان.



الأمير سليم بن سليمان وابن روكسلانه وهو طفل وشاب في مسلسل حريم السلطان.



صورة الأمير مصطفى وهو صغير وصورة الممثل الذي أدى دوره في المسلسل التركي حريم السلطان.



صورة الأمير الأحدب جهانكير بن سليمان من روكسلانه وقد مات عقب مقتل أخيه غير الشقيق مصطفى حزناً عليه فأطلق عليه شهيد الأخوة والصورة للطفل الذي قام بالدور في مسلسل حريم السلطان.



صورة للممثلين الذين قاموا بأدوار في مسلسل حريم السلطان بأدوارهم التاريخية السلطان وأولاده وحريمه.



«فريال» عشيقة إبراهيم باشا في المسلسل وهي شخصية خيالية درامية.



صورة من مسلسل حريم السلطان للممثل الذي يجسد دور السلطان وهو يقود إحدى الحملات العسكرية



الأميرة جويدان الزوجة الثانية للخديوي عباس حلمي.



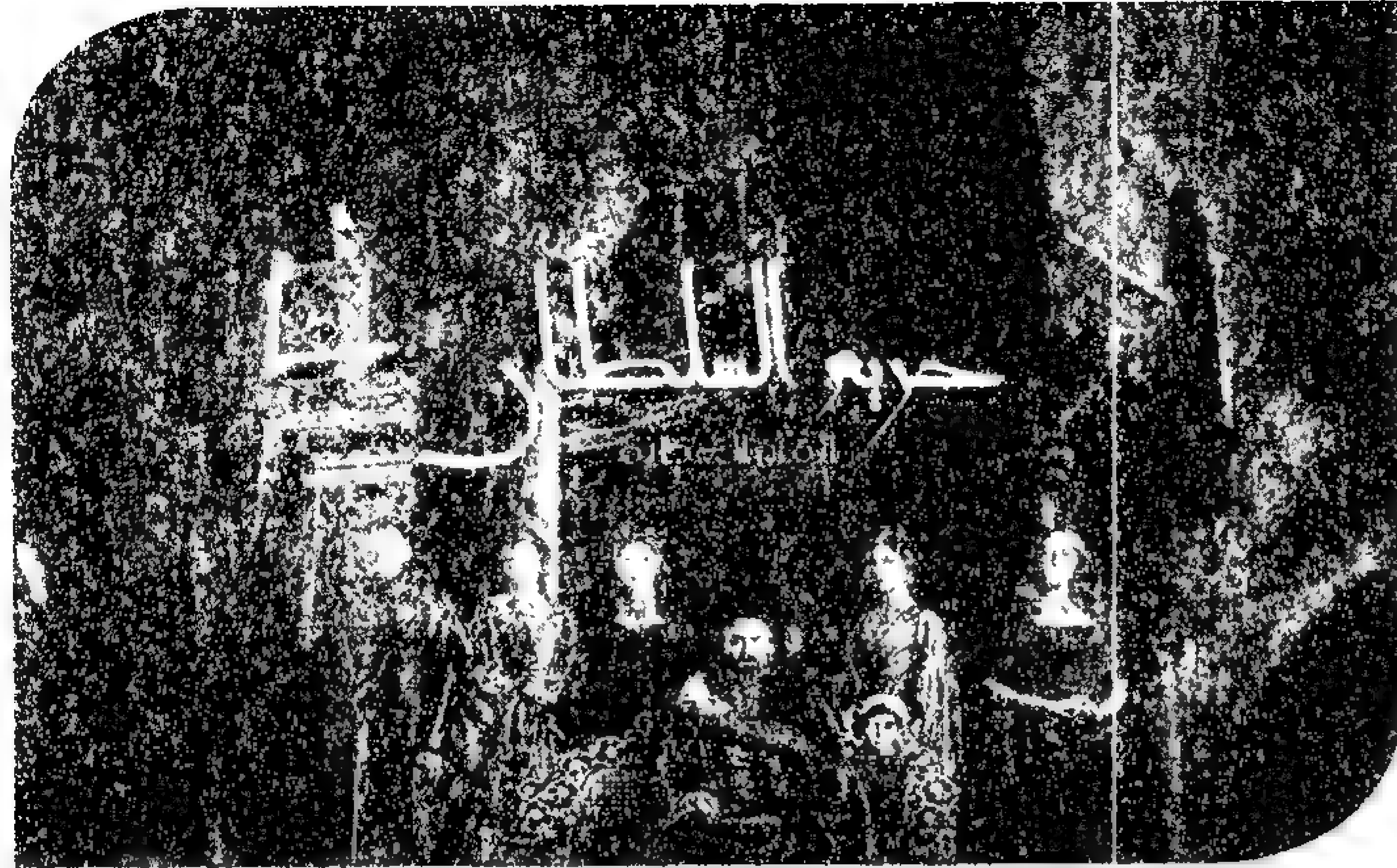
الممثل التركي الذي قام بدور الأمير مصطفى في المسلسل حريم السلطان.



صورة إبراهيم باشا يركب حصانه.



صورة من مسلسل حريم السلطان تجمع بين السلطان وزوجتيه وأخته وزوجها إبراهيم باشا.



إعلان خاص بالمسلسل التركي حريم السلطان.



صورة من مسلسل حريم السلطان يجمع بين إبراهيم باشا وزوجته السلطانة خديجة.



صورة للممثل التركي الذي قام بدور إبراهيم باشا في المسلسل التركي حريم السلطان.



صورة من مسلسل حريم السلطان لإبراهيم باشا.



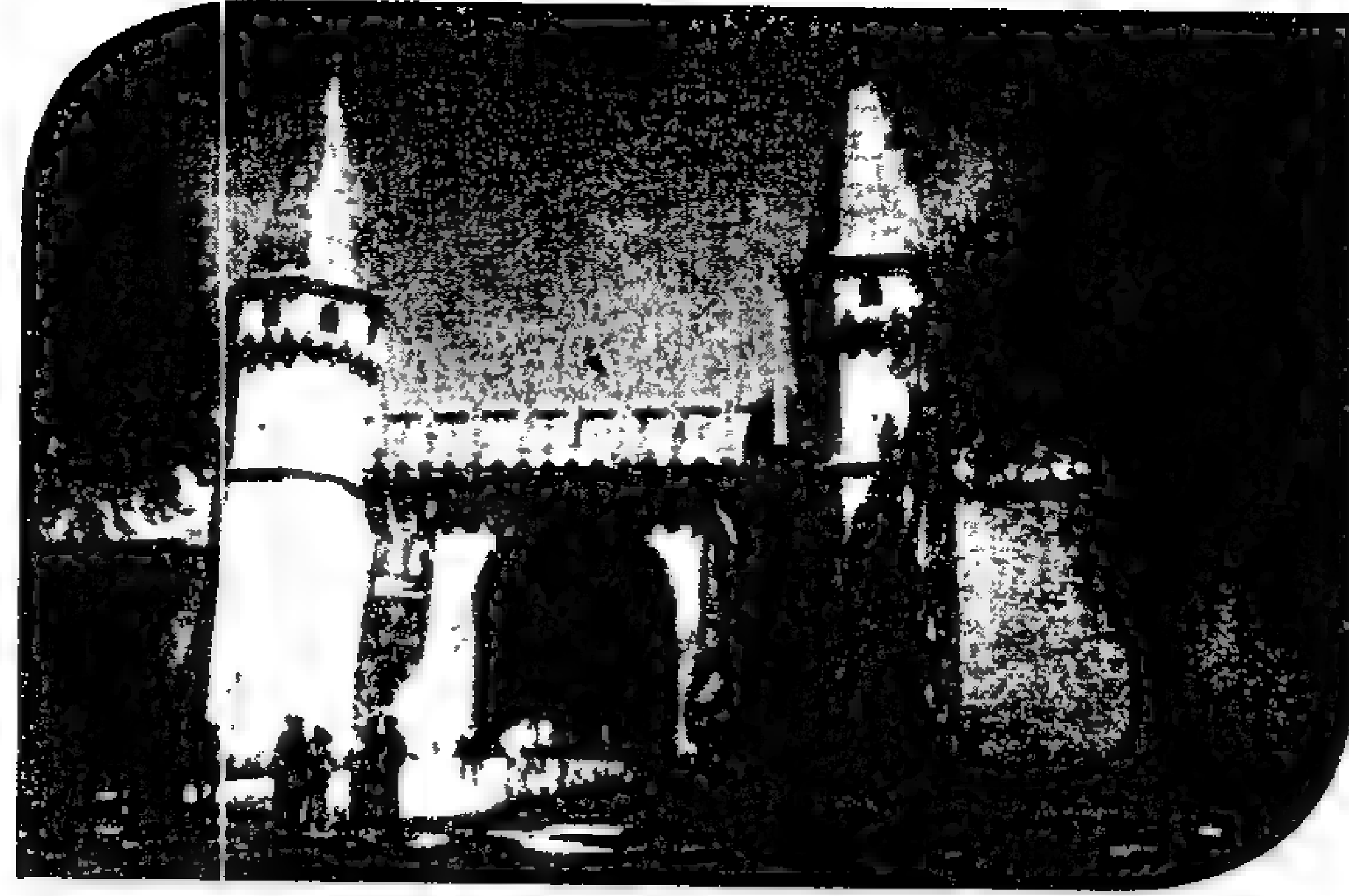
صورة إبراهيم باشا الصدر الأعظم وصديق السلطان وصهره وزوج السلطانة خديجة أخت السلطان سليمان.



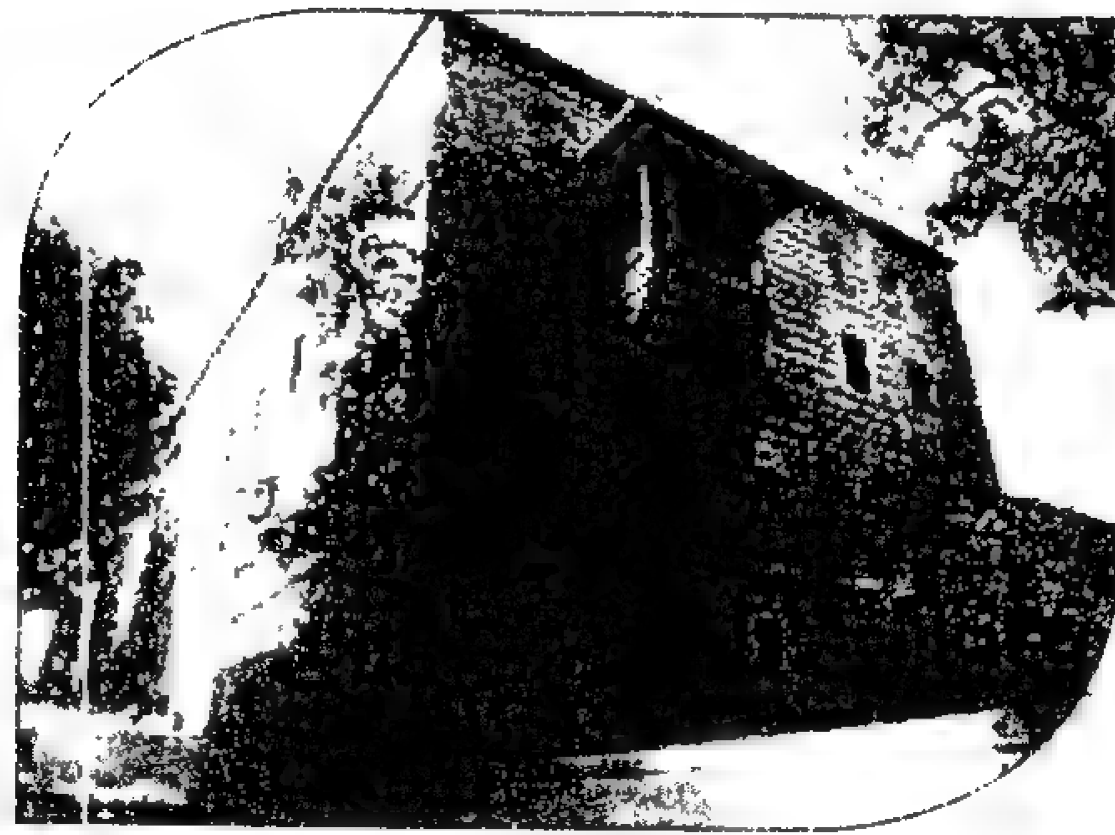
صورة لإبراهيم باشا الحقيقي وللممثل الذي قام بدوره في مسلسل حريم السلطان.



صورة أخرى لإبراهيم باشا في الزي الرسمي للصدر الأعظم وصورة أخرى للممثل الذي قام بدوره في المسلسل.



أحد أبواب القصر السلطاني الذي سكنه السلطان سليمان.



قصر إبراهيم باشا في العاصمة التركية



صورة تجمع بين السلطان وهويام في المسلسل.



صورة الممثلة التي قامت بدور خديجة في مسلسل حريم السلطان.

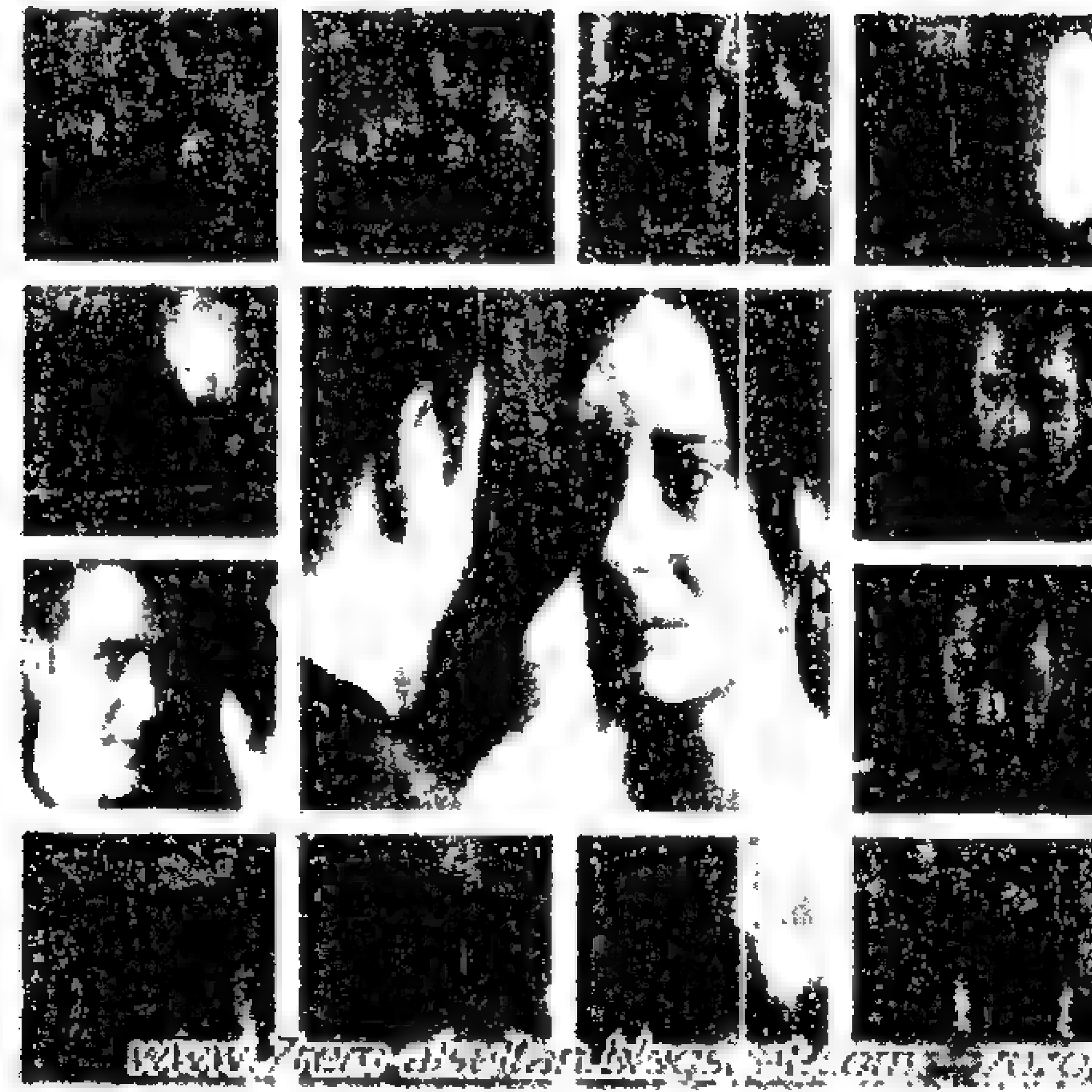


صورة للممثلة التي قامت بدور السلطانة خديجة أخت السلطان سليمان في المسلسل.



مشاهد لهويام في المسلسل، حيث ظهرت وهي تصلي، وتدعو للسلطان سليمان بالشفاء بعد دخوله في غيبوبة بعد محاولة قتله بالسم.





مشاهد من المسلسل للأمير مصطفى وفي الوسط مشهد له مع الجارية فتون التي أرسلتها هويام لقتله فأحبته وحملت منه فكان مصيرها القتل.

أهم المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – تاريخ الدولة العلية العثمانية – محمد بك فريد المحامي.

٣ – الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها – د. عبدالعزيز الشناوي.

٤ – السلطان عبدالحميد آخر السلاطين المحترمين – منصور عبدالحكيم.

٥ – الدولة العثمانية من الإمارة إلى الخلافة – منصور عبدالحكيم.

٦ – الدولة العثمانية – أكمل الدين أوغلو.

٧ – الحروب العثمانية الفارسية – محمد عبداللطيف هريدي.

٨ – الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط د. علي الصلابي.

٩ – جوانب مضيئة في تاريخ الدولة العثمانية – زياد أبو غيمة.

١٠ – السلطان عبدالحميد الثاني – أنور الجندي.

١١ – الصهيونية والإسلام – أنور الجندي.

١٢ – العرب والعثمانيون – د. عبدالكريم رافق.

١٣ – تاريخ الدولة العثمانية – روبير مانتران – ترجمة بشير السباعي.

١٤ – تاريخ سلاطين بني عثمان – حضرة عزتلو يوسف بك، أصاف.

١٥ – صحوة الرجل المريض – موفق بني المرجة.

١٦ – مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني – ترجمة محمد حرب.

١٧ – العرب والعثمانيون – د. عبدالكريم رافق.

١٨ – تاريخ العثمانيين – د. محمد سهيل طقوش.

١٩ – الإمبراطورية العثمانية – سعيد أحمد برجواي.

٢٠ – الدولة العثمانية – أكمل الدين أوغلو.

٢١- تاريخ الإمبراطورية العثمانية - وديع أبو زيدون.
٢٢- الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث - إسماعيل أحمد ياغي.
٢٣- مواقع عديدة على شبكة الإنترنت.
٢٤- فلسفة التاريخ العثماني - محمد جميل بيهم.
٢٥- الجواري - د. جبور عبدالنور.
٢٦- الدولة العثمانية - د. السيد رجب حراز.
٢٧- المدخل إلى تاريخ العالم - د. جلال يحيى.
٢٨- أوربا في مطلع العصور الحديثة - د. عبدالعزيز الشناوي.
٢٩- الفتح العثماني للشام ومصر - د. أحمد فؤاد متولي.
٣٠- الأتراك العثمانيون - بروكلمان كارل.
٣١- العرب والترك - محمد جميل بيهم.
٣٢- المواعظ والاعتبار - المقريزي.
٣٣- الإقطاع في الشرف الأوسط منذ القرن الثالث عشر الميلادي - د. السيد الباز العريني.

الكاتب في سطور

- منصور عبدالحكيم محمد عبدالجليل.
- من مواليد القاهرة ١٩٥٥.
- حاصل على ليسانس في الحقوق جامعة عين شمس ١٩٧٨م.
- يعمل بالمحاماة والكتابة.
- يعمل بالمحاماة والكتاب في الصحف والمجلات العربية والإسلامية له العديد من الإصدارات والأبحاث في الصحف والمجلات العربية والإسلامية واللقاءات على الفضائيات العربية وترجمت بعض كتبه للغة الإنجليزية ولغات أخرى. وعدد الكتب التي صدرت له حتى عام ٢٠١٣ عدد ١٥١ كتباً متنوعاً أثرت المكتبة العربية والإسلامية.

من الكتب التي صدرت له:

- السيناريو القادم لأحداث آخر الزمان.
- نهاية العالم وأشراط الساعة.
- عشرة ينتظرها العالم.
- تنبؤات نوستراداموس ومخططات اليهود.
- يأجوج ومأجوج من البداية إلى الفناء.
- البداية فتن والنهاية ملاحم.
- واقتربت الساعة.
- أقدم تنظيم سري في العالم.
- العالم رقعة شطرنج.
- من يحكم العالم سرًّا؟
- أسرار الماسونية الكبرى.
- أوراق ماسونية سرية للغاية.
- الإمبراطورية الأمريكية - البداية و النهاية.
- العراق أرض الفتن والنبوءات.
- بلاد الشام أرض الأنبياء والنبوءات.
- بلاد الحجاز معقل الإيمان آخر الزمان.

- نيويورك وسلطان الخوف.
- معجزات الشفاء بالحجامة.
- طارد الجن.
- مواجهة الجن.
- موائد الشيطان.
- الأعشاب والجن.
- دعوة للزواج.
- عرش إبليس ومثلث برمودا.
- نهاية العالم قريباً.
- نهاية دولة إسرائيل ٢٠٢٢م.
- الحرب العالمية الثالثة قادمة.
- المهدي المنتظر.
- نهاية ودمار أمريكا وإسرائيل.
- شهداء الصحابة.
- نساء أهل البيت النبوي.
- زوجات الأنبياء والرسل.
- بنات الصحابة.
- النساء المبشرات بالجنة.
- النساء المبشرات بالنار.
- الفراسة في معرفة الآخرين.
- ازدراء وإيذاء الأنبياء.
- بيوت الرسول والصحابة حول المسجد النبوي.
- جبريل عليه السلام أمين الوحي الإلهي.
- الشرق الأوسط في نبوءات الكتب المقدسة.
- المهدي في مواجهة الدجال.
- الشام على أعتاب النهاية.
- أبونا آدم عليه السلام.

- الحرب السابعة ونهاية اليهود.
- هرمجدون ونهاية أمريكا وإسرائيل.
- السفياني صدام آخر على وشك الظهور.
- مؤامرات وحروب من ورائها الماسونية.
- حكومة الدجال الماسونية الخفية.
- هلاك الأمم من قوم نوح إلى قوم عاد الثانية.
- دولة فرسان مالطا.
- الثالوث الغامض - أطلانتس - برمودا - الأطباق الطائرة.
- عالم السحر والسحرة والمسحورين.
- الحياة الأخرى.
- عالم الملائكة الكرام.
- أصحاب البروج في مواجهة أصحاب الكهوف.
- صلاح الدين المنتظر.
- جينكيز خان إمبراطور الشر.
- هولاكو مارد من الشرق.
- تيمورلنك إمبراطور على صهوة جواد.
- معاوية بن أبي سفيان أمير الدهاء.
- عمرو بن العاص - داهية العرب.
- خالد بن الوليد قاهر القياصرة والأكاسرة.
- رضوان حارس الجنة.
- مالك خازن النار.
- إسرائيل وأهوال القيامة.
- يوم الحشر.
- ملك الموت.
- أعمال يحبها الله.
- القرين العدو الحقيقي للإنسان.
- السلطان عبدالحميد الثاني آخر السلاطين المحترمين.

- مصطفى كمال أتاتورك ذئب الطورانية الأغبر.
- جهنم في الديانات السماوية.
- حرب الفيروسات ونهاية العالم.
- سلالات وعائلات ومنظمات تحكم العالم.
- عظماء ومشاهير اغتالتهم الماسونية.
- الحجاج بن يوسف الثقفي - طاغية بني أمية.
- الدجال في مواجهة الوحي الإلهي.
- المسيح في مواجهة الدجال.
- التمهيد الأخير لظهور الدجال.
- هارون الرشيد المفترَى عليه.
- السلطان قطز بطل عين جالوت.
- أبناء في الجنة وآباء في النار.
- بر الوالدين وعقوقهما وصلة الأرحام.
- بروتوكولات حكماء صهيون والمخططات الماسونية.
- الشفاء بالأحجار الكريمة.
- مثلث برمودا مقبرة الأطلنطي.
- الثورات الشعبية والماسونية.
- هاروت وماروت بين الحقيقة والخيال.
- جنود الله وهلاك الظالمين من البعوضة للفيس بوك.
- الحرب العالمية الأخيرة.
- الشيطان وصراعه مع الإنسان.
- عبدالله بن سبأ مؤسس الماسونية في الإسلام.
- الدولار الأمريكي الشفرة المقدسة للنظام العالمي الجديد.
- طوفان نوح عليه السلام.

وكتب أخرى متنوعة تطلب من دار الكتاب العربي (دمشق - القاهرة).

الفهرس